M

تيارت-جامعة ابن خلدون
University Ibn Khaldoun of Tiaret

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social Sciences
قسم علم النفس والفلسفة والأرطفونيا
Department of Psychology، Philosophy، and Speech Therapy

مذكرة مكملة لنيل شهـادة ماستر الطور الثاني
تخصص: فلسفة عربية إسلامية
العنوان

فلسفة البناء الروحي عند أبو حامد الغزالي

إعداد: بن زيان إكرام

إشراف الدكتور: بوروينة محمد

لجنة المناقشة

الأستاذ (ة)	الرتبة	الصفة
خديم فاطمة	أستاذة محاضرة –ب-	رئيسا
بوروينة محمد	أستاذ محاضر –أ-	مشرفا
شهدة محمد	أستاذ محاضر –أ-	مناقشا

السنة الجامعية: 2024/ 2025

شكر وعرفان

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، ووهبه نعمة العقل ليتفكر ويتدبر، ويبحث عن الحق والحكمة والمعنى، والصلاة والسلام على معلم البشرية الأول سيدنا محمد الذي أضاء بنوره الوحي ودروب العقل والقلب.

في حضرة الفكر والمعرفة، وفي محراب السؤال والتأمل، أحمد الله عز ووجل أن وفقني لإتمام هذه المذكرة، في مجال الفلسفة الذي طالما كان فضاء رحبا للبحث عن الحقيقة، ومحاولة فهم الإنسان والوجود وفق مقاصد العقل.

أتوجه بجزيل الشكر وخالص الامتنان إلى أستاذي "**بورويبة محمد**" على ما قدمه من دعم فكري وتوجيهي وعلى سعة صدره للنقاش والحوار الذي يعد جوهر الفلسفة وروحها.

كما أتقدم بجزيل العرفان لأساتذتي في قسم الفلسفة خاصة الأستاذة "**خديم فاطمة** " الذين غرسوا فينا روح السؤال وجرأة التفكير، فكانوا مشاعل نور في درب معرفي طويل أسأل الله أن يبارك في عمرهم وعملهم.

ولا يسعني إلا أن أرفع أكف الدعاء إلى الله شكرا وامتنانا لوالدي الكريمين، الذين كانوا لي العون والسند بدعائهما وصبرهما وتضحياتهما، فأسأل الله أن يجزيهما عني خير الجزاء، وأن يجعل برهما فريضة لا تنقضي.

وفي الختام أستحضر قول الله تعالى: "وقل رب زدني علما." وأسأله سبحانه أن يجعل هذه المذكرة خطوة في سبيل فهم أعمق وأصدق لذواتنا وللعالم من حولنا بعقل مستنير، وقلب موصول بالله،

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

إهداء

إلى أول شيء من كل شي، إلى ملاكي المحب، إلى من تحتويني وتفهمني بدون كلام، إلى أنقى حب سيظل متوقدا ما حييت، إلى التي حملت همي وأحبتني قبل أن تلدني إلى التي تعطي ولا تنتظر أن تأخذ مقابل العطاء، إلى النبع الذي أستمد منه أسمى مبادئ حياتي لمن كان دعاؤها سر نجاحي وبلسما لجراحي، إلى جنة الله في الأرض، إلى من سهرت وتعبت وبذلت الغالي والنفيس من أجلي إلى من يعجز الكلام عن وصفها إلى صاحبة أطيب قلب في العالم، أهديك كلماتي هذه مغلفة بالحب ومبللة بالدعاء أسأل الله تعالى أن يبارك في عمرك أن يشفيك شفاء لا يغادر سقما، ويحفظك لي، ويجعل لك في كل نبضة من قلبي دعاء لا ينقطع .(أمي الحبية)

إلى من كلله الله بالهيبة إلى من علمني العطاء دون انتظار إلى من أحمل في اسمه بكل افتخار وأرى وجهه في ملامح وجهي في كل يوم، إلى الرجل الذي لا يتكرر إلى حبي الأول والأكبر إلى مثلي الأعلى بالصبر والقوة والنجاح إلى من أفتخر به ما حييت إلى حصد الأشواك في دربي ليمهد لي طريق العلم، إلى من رأيت انعكاس نجاحي وفرحتي بريقا في عينه إلى من ملأ قلبي بالدعم والتشجيع وكان لي أعظم رجل في الكون وساندني في كل شيء حتى وصلت إلى ما أنا عليه أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ما سأفعله لأجلك من أفديك بروحي. (والدي العظيم)

أهدي هذا العمل المتواضع إلى قلوبكم النقية التي طالما احتضنتني بمحبتها وإلى أرواحكم الطيبة التي كانت لي دفئا حين اشتد البرد والنور حين أظلم الطريق لعل كلماتي لا تفيكم حقكم لكن يكفيني أن أقول كنتم وما زلتم أجمل ما منحني الله في هذه الحياة (إخوتي الأحباء)

إلى رفاق الخطوة الأولى والخطوة ما قبل الأخيرة، إلى من كانوا خلال السنين العجاف سحابا ممطرا، أنا ممتنة، كنت محظوظة بصحبتكم إلى أصحاب المواقف التي لا تنسى. (صديقاتي)

مقدمة

مقدمة:

تعد الفلسفة الإسلامية من أبرز الإنجازات الفكرية التي عرفها التاريخ الإسلامي، إذ مثلت مجالا خصبا للحوار بين العقل والنقل، وللتفاعل بين التراث الإسلامي والميراث الفلسفي اليوناني الفارسي والهندي، وقد تميزت هذه الفلسفة بطابعها التوفيقي، حيث سعى فلاسفة الإسلام للتوفيق بين تعاليم الشريعة ومطالب العقل، وبين النصوص المقدسة والأسئلة الوجودية الكبرى، مثل حقيقة النفس، وغاية الوجود، وسبل السعادة ومراتب المعرفة، وعلاقة الإنسان بخالقه، لم تكن الفلسفة الإسلامية مجرد ترف فكري أو تقليد لما سبقها من فلسفات، بل كانت تعبيرا أصيلا عن انشغالات الإنسان المسلم وهمومه الروحية والعقلية، وسعيه نحو الفهم العميق للحياة والكون والذات، وقد تنوعت اتجاهاتها بين العقلانية الفلسفية والطرح الصوفي والفكري العميق .

في هذا السياق برز أبو حامد الغزالي كأحد أعلام الفكر الإسلامي الذين جمعوا بين العقلي والصفاء الروحي، وتركوا بصمة قوية في مجالات متعددة: الفقه، وأصول الدين والتصوف والفلسفة، وقد شكلت تجربته الفكرية والروحية نموذجا فريدا في تاريخ الفكر الإسلامي، خاصة بعد أن مر بأزمة شك عميقة قادته إلى مراجعة منهج المعرفة، والبحث عن يقين لا يتزعزع، لم يجده في الجدل الكلامي ولا في الفلسفة العقلية، بل في البناء الروحي.

حيث ظل الإنسان، منذ فجر الفكر الفلسفي، يتساءل عن كينونته وعن السبل الكفيلة بتحقيق التوازن بين جسده وروحه، وبين واقعه المادي ومصيره الأخلاقي والميتافيزيقي، وقد مثل البعد الروحي أحد أهم الإشكاليات التي عالجها الفلاسفة والأنبياء على حد سواء، باعتباره الشرط الأساس الذي يمنح الوجود الإنساني معناه وغايته، فكلما غاب الوعي الروحي عن الإنسان استبد به الاغتراب، واضطربت قيمه وفقد البوصلة التي

توجهه نحو الخير والكمال، وفي ظل التحولات التي عرفها العصر الحديث تصاعدت النزعة المادية وتراجعت مرجعية القيم الروحية، وأصبح الإنسان المعاصر مهددا بانفصال داخلي، يتمثل في أزمة الذات وانهيار المعايير الأخلاقية، وقد سبق أن نبه مفكرون كبار الحضارة الإسلامية في مقدمتهم أبو حامد الغزالي، إلى خطورة هذا الخلل حين يتراجع الاهتمام ببناء النفس وتزكيتها، إن مشروع الغزالي في "إحياء علوم الدين "وغيره من مؤلفاته الكبرى لم يكن مجرد دعوة وعظية، بل كان يجمل في عمقه رؤية فلسفية متكاملة، ترى أن البناء الروحي السليم ليس ترف فرديا، بل ضرورة وجودية لبناء الإنسان الحق وإصلاح الأمة ومواجهة التيه الحضاري ومن هنا تكتسي دراسة هذا المفهوم أبعادا فلسفية وتربوية وأخلاقية، وهذا ما يجعلنا نعيد مساءلة واقعنا المعاصر في ضوء مقارباته الروحية العميقة.

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:

- البناء الروحي يمثل محورا أساسيا في مشروع الغزالي الإصلاحي.
- يعالج مشكلات فردية ومجتمعية من خلال إصلاح النفس.
- يقدم بديلا متوازيا عن الإفراط الفلسفي أو الغلو الصوفي.
- يعيد الاعتبار لقيمة الإخلاص والنية والمراقبة في سلوك الإنسان.

انطلاقا من هذه الأهمية، تسعى هذه المذكرة إلى دراسة مفهوم البناء الروحي السليم عند الغزالي، من حيث أسسه المعرفية، ومقاصده التربوية، وآثاره العلمية.

أما بالنسبة للأهداف تكمن في:

فهم الأسس النظرية والوسائل العملية للبناء الروحي عند الغزالي.

إبراز العلاقة بين لتصوف الغزالي وفلسفته.

الاستفادة من تجربته في معالجة الأزمات الروحية المعاصرة.

إبراز منهجه العلمي في تزكية النفس وتطهير القلب.

1. الإشكالية:

في ظل التحديات الروحية التي يواجهها الإنسان المعاصر، وتأثير الأزمات النفسية والفكرية على تماسكه الداخلي، يطرح الغزالي مشروعا يدمج بين الفكر والعاطفة، بين العقل والتجربة الروحية.

ومن هذا المنطلق يمكن صياغة الإشكالية المحورية لهذا البحث بتساؤل التالي:

كيف تناول الإمام الغزالي مفهوم البناء الروحي؟ وما هي الأسس والوسائل التي اعتمدها في مشروعه لتزكية النفس؟ كيف وظف الغزالي التصوف والفلسفة في تشكيل مفهومه للبناء الروحي؟ وما دور العلم والعمل في تحقيق البناء الروحي عند الغزالي؟

2. الفرضيات:

- لغزالي قدم تصورا متكاملا للبناء الروحي يجمع بين الشريعة والتصوف.
- يعتمد البناء الروحي عنده على تزكية الباب نفس عبر منهج تربوي عملي أخلاقي.
- يتأسس البناء الروحي على تطهير الباطن قبل إصلاح الظاهر.
- تأثير الغزالي بالقران والسنة وبالمدرسة الصوفية، لكنه سعى إلى تنقية التصوف من الانحرافات.
- يعد منهج الغزالي في التزكية مناسب للتطبيق في مختلف العصور، بما فيها العصر الحديث.

من أجل دراسة موضوع " البناء الروحي السليم عند الغزالي "اتبعت مناهج متعددة الأبعاد وهي:

المنهج التحليلي (الوصفي): لتحليل نصوص الإمام الغزالي، خاصة في كتابه إحياء علوم الدين، وفهم المفاهيم المتعلقة بالبناء الروحي، مثل التزكية، المراقبة المجاهدة وغيرها.

المنهج الاستقرائي: لتتبع الأفكار الروحية عند الغزالي من خلال مؤلفاته المختلفة، واستخلاص الأسس والمراحل التي اعتمدها في تربية النفس وبنائها.

المنهج النقدي:

ومن أهم الأسباب والعوامل لتي أدت بي إلى اختيار مثل هذا الموضوع:

3. الأسباب الذاتية:

- الاهتمام الشخصي بالجانب الروحي والتربوي في الفكر الإسلامي، والرغبة في التعمق في مفاهيم التزكية والإصلاح الذاتي.
- الانجذاب إلى شخصية الغزالي لما تمثله من نموذج فريد في الجمع بين العلم والعمل، وبين الفلسفة والتصوف، ما يجعل دراسته مدخلا لفهم أعمق للبناء الروحي في الإسلام.
- ـــ الرغبة في فهم سبل معالجة الأزمات النفسية والروحية التي يمر بها الإنسان المعاصر من خلال نموذج إسلامي أصيل.
- ـــ الإعجاب بفكر الإمام الغزالي ومنهجه المتوازن في الجمع بين العقل والروح، بين الدين والتصوف.

4. الأسباب الموضوعية:

- مكانة الغزالي في الفكر الإسلامي إذ يعد من أبرز المفكرين الذين تناولوا موضوع الروح وتزكية النفس بطريقة منهجية تجمع لبن العمق العلمي والتجربة الذاتية.
- أهمية البناء الروحي في تحقيق التوازن النفسي والأخلاقي للفرد المسلم، خصوصا

في ظل التحديات المادية المعاصرة.

- مكانة الغزالي في الفكر الإســـلامي كأحد أبرز العلماء الذين اهتموا بتزكية النفس وأسسوا لمشروع إصلاحي متكامل.
- قيمة الكتابات الغزالية كمصدر تربوي وأخلاقي، خاصة مؤلفه الشهير إحياء علوم الدين الذي يعتبر موسوعة روحية وتربوية متكاملة.

وعلى الرغم من ذلك فقد ساعدتني بعض الدراسات التي تناولت موضوع الغزالي كدراسة:

في كتابه "إحياء علوم الدين " هو أشـــهر مؤلفات الإمام الغزالي، ويعد من أعظم الكتب في التراث، حيث جمع فيه بين الفقه والتصـــوف والأخلاق، وســـعى فيه لإحياء جوهر الدين بعد أن رأى طغيان المظاهر الشكلية على الروح والمعنى.

أما في كتابه "مجموعة رســائل الغزالي "تعد مرآة لفكره الشــامل، وتبرز توازنه بين العقل والنقل، وبين الشريعة والحقيقة، وهي نافعة لطالب العلم والمتصوف والمصلح على حد سواء، وتظهر عمق روح الغزالي وسعة علمه وحرصه على هداية الناس.

وفي مقال" العلاقة بين فلسفة الغزالي وتصوفه " تناول فيه الدكتور منصور عفيف أن فكر الغزالي يمثل محورا متوازنا بين الفلسفة والتصوف، حيث استخدم العقل في فهم الشـــريعة والتصـــوف في تحقيق المعرفة الروحية، هذا التوازن جعل الغزالي من الغزالي شــخصــية فريدة في التاريخ الإســلامي، حيث جمع بين العقلانية والروحانية في ســعيه للوصول إلى الحقيقة.

5. خطة البحث:

للإجابة عن التســاؤلات المطروحة ارتأيت بحثي هذا خطة مكونة من مقدمة، مدخل مفاهيمي، بالإضافة إلى ثلاث فصول، ثم خاتمة.

الفصـل الأول: كان بعنوان البناء الروحي السـليم عند الغزالي تناولت فيه ثلاث مباحث،

فالمبحث الأول تحت عنوان نظرية المعرفة عند الغزالي، **المبحث الثاني** تناولت فيه الأسس النظرية للبناء الروحي عند الغزالي، **المبحث الثالث** بعنوان الوسائل العلمية للبناء الروحي عند الغزالي.

أما بالنسبة **للفصل الثاني**، كان بعنوان تأثيرات فكرة البناء الروحي السليم عند الغزالي فهة الأخر قسمته إلى ثلاث مباحث **فالأول** شرح النفس والروح الإنساني، أما **الثاني** غلبة النفس وعداوة الشيطان و**المبحث الثالث** جاء بعنوان كون النفس جوهر.

كما جاء **الفصل الثالث** الموسوم ب الغزالي والتصوف فتناولت فيه ثلاث مباحث أيضا **الأول** الغزالي والتصوف **والثاني** تصوف الغزالي وآثره على فلسفته أما بالنسبة **للمبحث الثالث** فهو التجربة الصوفية وعلاقتها بالفلسفة عند الغزالي.

وكأي بحث علمي فهولا يخلو بدوره من **الصعوبات والعوائق** التي واجهتني أثناء انجازي هذا العمل فيمكن الإشارة إليها فيما يلي:

ندرة المصادر المتخصصة: رغم كثرة الكتب عند الغزالي، فإن العثور على مصادر تركز بشكل دقيق على البناء الروحي، تطلب جهدا كبيرا، واحتاج إلى فرز كم هائل من المراجع للعثور على المناسب منها.

صعوبة فهم النصوص الصوفية والفلسفية: كان من التحديات الكبرى فهم عمق النصوص التي كتبها الإمام الغزالي، خاصة تلك المتعلقة بالجوانب الروحية، بسبب لغتها الفلسفية والرمزية العالية.

التحديات المنهجية: اختيار المنهج المناســـب لتحليل فكر الغزالي، هل هو تحليلي، نقدي، مقارن؟ كان من المسائل التي تطلبت وقتا وجهدا للجسم فيها.

غموض بعض المفاهيم الصـــوفية: التي لا يمكن فهمها فهما كاملا إلى بالرجوع إلى سياقها الصوفي والتربوي.

مدخل مفاهيمي

مدخل مفاهيمي:

1/ تعريف النفس:

1 /1 لغة: قال إبن فارس (النفس) النون والفاء والسين أصل واحد يد عل خروج النسيم كيف كان من الريح وغيرها، وإليه ترجع فروعه من التنفس خروج النسيم من الجوف ونفس الله كربته وذلك أن في خروج النسيم روحا وراحة.[1]

والنفس: تعني الروح ويقال أن فلان جادة نفسه أو خرجت نفسه أي مات ويقال جاء هو بنفسه أو نفسه وجمعها نفس أو أنفس، ويقال " أن فلان أصابته نفس أوعين وفلان دون نفسه أي جلد وخلق وفلان يؤامر نفسه أي له رأيان ولا يعلم أيهما يثبت ويستقر، كما تعني نفسي قصدي مرادي عند قول نفسي أن أفعل كذا وكذا.[2]

وذكر ابن منظور أن النفس هي الروح واعتبر ابن أسيد أن بينهما فرق ومن معانيها ما دل على جملة الشيء وحقيقته أي أنها تدل على أن الإنسان كله بجانبيه المادي والمعنوي، ويذكر كذلك أن لفظ النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته، نقول قتل نفسه وأهلك نفسه.[3]

أما الزبيدي، صاحب تاج العروس فيقدم تفصيلا لتعريف النفس والروح ويحمل في معجمه دلالات النفس لقوله:[4] "وقد يحصل من كلام المصنف رحمة من الله تعالى خمسة عشر معنى للنفس وهي: الروح، الدم، الجسد، العين، العند، الحقيقة، الشيء،

---

[1] ابن فارس أبو يحيى، معجم مقاييس في اللغة، شهاب الدين أبو عمروا، ط1، ج5، ص 369.

[2] قاموس مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1932، تراث العربي دار الإسلام، 2014.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة النفس، ج1، ص 233.

[4] الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس، مادة النفس، بيروت، لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، ط 4، ص 260، 262.

القدر، الدبغة، العظمة، العزة، الأنفة، الغيب، الإرادة، العقوبة، النفس جميعه روحه وجسده."، كقوله تعالى: "أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله."[1]

1/2اصطلاحا: أدرك الإنسان البدائي ظاهرة وجود النفس أو الروح في الجسم وذلك نتيجة ملاحظته الغربية في الإنسان وما حوله كالموت والآلام وإتلاف طبائع الناس ودوافعهم وأن هناك قوة في النفس تحرك الإنسان لهذا انشغلت الحضارات القديمة بالحديث عن وجود الأرواح في النفس أو الروح عند أفلاطون وغيره من الفلاسفة الذين تأخروا تأتي من عالم علوي مجهول وعندما تموت تعود إلى عالمها من جديد.[2]

النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحسن والحركة الإرادية وسماها الحكيم الروح الحيوانية فهي الجوهر المشرق للبدن، فعند الموت يتقطع ضوئي عن ظهر البدن وباطنه وأما وقت النوم فينقطع ظاهر البدن دون باطنه فثبت أن النوم والموت من جنس واحد لأن الموت هو الانقطاع الناقص فثبت أن القادر الحكيم دبر التعلق جوهر النفس بالبدن على أضرب.[3]

ويقول الإمام الغزالي: عن النفس أنها مشتركة بين معنيين إحداهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة من الإنسان وهو الطالب على أهل التصوف لأنهم يردون بالنفس الأصل الجامع لصفات المذمومة والمعنى الثاني هي نفس الإنسان وذاته

[1] سورة الزمر الآية، 56.

[2] محمد جاسم محمد، مدخل إلى علم النفس العام، ط2، عمان، دار الثقافة للنشر، سنة 2004، ص 24.

[3] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تعريفات إبراهيم الايباري، مصر، مطبعة دار الريان للتراث، 1938، ص 312 .

لكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وأزليها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات، سميت النفس المطمئنة.[1]

قال الله تعالى: "أيتها النفس المطمئنة." [2]

2/تعريف الروح:

2/1 **لغة:** قال ابن فارس (الروح): الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد يدل على سعة وفسحة واطراد وأصل الياء في الريح واو، وإنما قلبت ياء الكسرة ما قبلها، فالروح روح الإنسان وإنما هو مشتق من الريح وكذلك الباب كله، والروح نسيم الريح.[3]

وقال محمد الرازي: الروح يذكر ويؤنث وجمع أرواح، ويسمى القران وعيسى وجبرائيل عليه السلام روحا وبالنسبة إلى الملائكة والجن روحاني بضم الراء وجمع روحانيون وكذلك كل شيء فيه روح روحاني بالضم، ومكان روحاني بفتح الراء طيب وجمع الريح رياح وأرياح وقد تجمع على أرواح.[4]

وقال فيروز أبادي: الروح بالضم ما به حياة الأنفس ويؤنث والقران والوحي وجبريل وعيسى عليهما السلام والنفخ وأمر النبوة وحكم الله تعالى وأمره وملك وجهه كوجه الإنسان وجسده كالملائكة، وبالفتح: الراحة والرحمة ونسيم الريح.[5]

---

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مصر للطباعة، ج 2، سنة 1998، ص، 3، 5.

[2] سورة الفجر، الآية 27.

[3] ابن فارس، أبو حسين، أحمد زكريا، معجم مقاييس اللغة، محقق السلام، محمد هارون، دار الفكر، ج 2، ص 454.

[4] الرازي محمد بن أبي عبد القادر مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، ناشرون بيروت، 1995،1415، ص 267.

[5] الفيروز الأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح، محمد خاطر نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب ت، ص 220.

وعرف الدواني: الروح بالجسم اللطيف الحال في الجسم الكثيف مادام الكثيف مستعدا لحلول اللطيف فيه الفارق له في النوم إلى وقت الانتباه، وفي حالة الموت إلى وقت سؤال الملكين في القبر، وبعد السؤال إلى الحشر فهو يسمى بـــ "الروح " في لسان الشرع،[1] وقال العوتبي :"وقولهم حرجت روح فلان أي نفسه والروح :النفس التي يحيا بها البدن والروح :النفخ، سمي روحا لأنه يخرج من الروح . [2]

2 /2اصـــطلاحا: إن الروح عند أهل الكتاب متفق في الأديان الســـماوية كلها، ولكن الاختلاف حدث عندما طل أتباع تلك الديانات السماوية، التي نالت التحريف وخصوصا النصـــرانية، وأما اليهودية فعلى الرغم من التحريف إلا أن مفهوم الروح عندهم مماثل لمفهومها عند المسلمين، الذين استنبطوا معنى الروح من القرآن والسنة حيث يرى الإمام الغزالي أن الروح على معنيين:

المعنى الأول: هي أمر عجيب رباني، وأن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها، يقصد بالروح القلب جسم لطيفة منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة

[1] الداوني جلال الدين محمد بن سعد الصديقي، حقيقة الإنسان والروح الجوال ي العوالم، تح، محمد زاهد الكوثري، مكتبة الأزهرية، ب ت، مصر، ص 8

[2] أبو منذر،سلمة بم مسلم بم إبراهيم الصحاري العوتبي، الإبانة في اللغة العربية، تح، عبد الكريم خليفة، نصرت عبد الرحمان، صلاح جرار محمد حسين العواد، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط عمان ط 1، ج3، ص 163.

والحس والبصر والسمع والشم منها أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان والروح مثالها النور السراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه مع غرضنا إذا المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا.

المعنى الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: "قل الروح من أمري ربي". وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والإفهام عن درك حقيقته.[1]

3/تعريف العقل:

1 /3لغة: هو مصدر عقل، تعقل، عقلا، ورجل عاقل هو الجامع أمره ورأيه، ومأخوذ من عقلت البعير، إذا جمعت قوائمه.

وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه وقيل العقل هو التمييز الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان.

في قاموس المحيط، العقل هو العلم بصفات الأشياء من حسنها أو قبحها أم العلم بخير الخيرين وشر شرين.[2]

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، لبنان، بيروت، ص 2، 3، 4 .

[2] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مطبعة دار السعادة، القاهرة، 1913 ، ص 18.

2 /3 اصطلاحا: عند المتصوفة:

عند الغزالي: يعتبر العقل غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف من القلب به، ومن الناحية يتأثر بالاتجاهات الفلسفية في تقسيمه إلى أربعة أقسام بعضها يذكر في التعريفات الآتية: العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وأنه بعض العلوم الضرورية، ثم يصور العقل بأنه "ملك في مملكة البدن " وهو يعده موطن التكليف ومناط المسؤولية عندما يسند إليه معرفة عواقب الأمور والإقدام على الشهوة والإحجام عنها.[1]

أما عن العقل فيقول: اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى الكلف في إظهاره لا سيما قد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى التمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ثم يقول: فشرف العقل مدرك بالضرورة وإنما القصد أن نورد به الأخبار والآيات فيذكر شرفه وقد سماه الله نور في قوله: "الله نور الموات والأرض مثل كمشكاة ". ونسمي العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة، فقال تعالى:" وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا".[2]

4/تعريف العلم:

1 /4 **لغة:** قال ابن فارس العين واللام والميم أصل يدل على أثر بالشيء يتميز به من غيره، ومن ذلك العلامة وهي معروفة، ويقال علمت علما الشيء علامة، والعلم الراية والجمع أعلام والعلم نقيض الجهل، ويطلق ويراد به المعرفة، وسمي علما لأنه علامة

[1] الجوزو، محمد علي، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1983، ص 168.

[2] سورة الأنعام، الآية 122، انظر إلى إحياء علوم الدين، 1،88.

يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس فهو كالعلم والمنصوب بالطريق.[1]

2/4اصطلاحا: قال الراغب الأصفهاتي في تعريف العلم في القران: هو إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان أحدهما إدراك ذات الشيء والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي الشيء هو منفي عنه .[2]

وقال ابن عبد البر: " إن العلم هوما استيقنته وتبنيته وكل من استيقن شيئا وتبناه فقد علم ".[3]

وقال الجرجاني: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.[4]

4/3 **الاصطلاح القرآني:** إن المتتبع لمفهوم العلم في القرآن الكريم يجد أنه ليس قاصرا على العلم الديني أو الأخروي أو عالم الغيب، فقد استعمل القرآن العلم بمعناه المطلق الذي يشمل كل علم قال تعالى:" والله أخرجكم من بطون أمهاتهم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ". [5]

لا تعلمون شيئا هنا في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتيا أو أرذل العمر، وكلمة علم هنا نكرة تفيد العموم المستغرق لعلم كل شيء.

واستعمل العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية أي العالم كله قال الله تعالى: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون". فهذا العلم الدنيوي مقابل العلم الأخروي، واستعمل العلم في علم الحساب والفلك لقوله تعالى:" هو

---

[1] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص 232.

[2] الأصفهاني، المفردات في قريب القران، بيروت، دار المعرف، ص 343.

[3] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج 2، بيروت، دار الفكر، ص 45.

[4] الجرجاني، التعريفات، تحقيق عبد الرحمان عميرة، بيروت، عالم الكتب، ص 343 .

[5] سورة النحل، الآية، 78.

الذي جعل الشمس ضياءا والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنيين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون." [1]ومن منزلة العلم في القرآن أن الإنسان يتوصل به إلى أن يكون من الشهداء على الحق والدليل قوله تعالى: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم فإنما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ". (سورة آل عمران، الآية 18.)

هذه بعض الآيات التي تدل على حث القرآن على العلم، وعلى منزلة العلماء وغيرها الكثير من الآيات التي تتناول مفهوم العلم.

العلم في السنة النبوية: أما إذا انتقلنا إلى السنة النبوية فنجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث عن العلم وعن منزلة العلماء في أكثر من موضوع، قال صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالقهم حتى يأتي أمر الله.[2]

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في إثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها".[3]

وعن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."

5/ تعريف التصوف: نجد أن الفلاسفة قد عرفوا التصوف من منطلق فلسفي أما رجال الدين فقد عرفوه من منطلق ديني ونورده فيما يلي نموذجا لكل تعريف:

---

[1] سورة ياسين، الآية 5.

[2] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ج 1، رقم 7، ص 42.

[3] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاعتباط في العلم والحكمة، ج 1، رقم 73، ص 43.

5/1**فلسـفيا:** فمن المنطلق الفلسـفي نجد إبراهيم مذكور يعرفه في معجمه الفلسـفي: " أنه نزعة تعول عن الخيال والعاطفة أكثر مما تعول على العقل والتجربة الحسية". يقصد بالتصـــوف هنا ذلك الاتجاه الذي يعتمد على المعرفة الروحية من تخيل وعاطفة اعتمادا على المعرفة العقلية والمعرفة الحسية التجريبية معا.

5/2 دينيا: أما من المنطلق الديني فيورده إبراهيم منظور مذكور في معجمه على أنه هو علم القلوب الذي يبحث في الأمور الباطنية ويســـمو إلى تصـــفية القلوب والطهر والتجريد ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي.[1]

فمن الناحية الدينية يعرف التصـــوف على أنه العلم الذي يبحث في الأمور الباطنية من عاطفة قلبية يوصل الصوفي إلى الاتصال بالعالم السفلي والعالم العلوي والروحاني. أما الغزالي يعفر التصوف قائلا: "قطع علائق القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والأنانية إلى دار الخلود والهروب من الشـــواغل والعلائق وأن يصـــير القلب إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ".[2]

قصد الغزالي أن المتصوف يجب عليه أن يقطع كل علاقاته القلبية الشهوانية من الأمور الدنيوية حتى يصبح قلب المتصوف يهدف للوصول على أهداف أخروية.

6/ تعريف الصـحة النفسـية: الصـحة النفسـية عند أبي حامد الغزالي هي التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضـــائل أي القيم المرتبطة بالتوحيد، فالصـــحة النفســـية عند الغزالي مرتبطة بحسن الخلق، وحسن الخلق هو عبارة عن هيئة راسخة في النفس تميل لها إلى فعل الحسن، ويتيسر عليها فعل الحسن، بسبب توازن قوى النفس الباطنية ففي الباطن

[1] دكتور إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، القاهرة، د ط، 1983، ص 53.

[2] الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج 3، نقلا عن عباس محمود العقاد، فلســفة الغزالي، د ط، القاهرة 2013، ص 9.

أربعة أركان إذا اعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.[1]

6/1 التعريف الإجرائي: الصحة النفسية هي حسن الخلق وهو عبارة عن معدل الملمح الذي يتحصل عليه المفحوص من مجموع رذائله وفضائله تبعا لمقياسي الرذائل والفضائل.[2]

7/تعريف التدين:

7/1 لغة: (تدين) اقترض فصار مدين وبكذا دان به (الديانة)[3]، ما يتدين به الإنسان (الدين) الديانة واسم لجميع ما يعبد به الله والملة والإسلام والاعتقاد.

7/2اصطلاحا: هو التسليم والخضوع لأوامر الله المنزلة في القرآن فهو الاستسلام والطاعة والعبودية واستسلام القلب والجوارح، فالتدين إذن هو جهاد لإنجاز الدين فيه معاناة يكابدها الإنسان عبر واقعه الذاتي والموضوع وفي ذلك الجهاد يصوغ من تصرفاته الفردية والاجتماعية والكونية في مكابدتها لواقع النفس والمجتمع والكون أفعالا جزئية غير منحصرة يحقق بها كليات الدين، ويقترب بها قدما من المثال الكامل على قدر ما يصيب في اجتهاده،[4] فهو بتعبير آخر إقامة الدين بتطبيق أوامره التي أنيطت بعهدة الإنسان، فأن التدين هو تمثل تلك التعاليم وإنزالها لتغدوا واقع يترجم في شكل

---

[1] فرويد سيغموند، إبليس في التحليل النفسي، ط 2، الطليعة، بيروت، لبنان، 1986. ب ص 256.

[2] د نادية جازولي، الصحة النفسية عند أبو حامد الغزالي، " دراسة إبستمولوجية "، مجلة البحوث التربوية والتعليمية، المجلد 11، العدد 2، 2022، جامعة الجزائر 2، تاريخ النشر، 9،6،2022، ص 256.

[3] جدلية الأخلاق وفاعلية التدين الإيجابي في فكر محمد الغزالي، د، مباركة حاجي، المجلد، 8، العدد1، مارس، ص401.

[4] عبد المجيد النجار، فقه في التدين، فقها وتنزيلا، مركز البحوث والمعلومات، قطر، د ط، ص 1، 15 .

تصورات وسلوكات وأفعال التدين هو الانفعال بالدين تصديقا عقليا وسلوكا علميا على معنى تحمل الدين واتخاذه شرعا ومنهاجا أو هو كسب الإنسان في الاستجابة لتلك التعاليم وتكييف الحياة بحسبها في التصور والسلوك .[1]

8/تعريف الالتزام:

8/1لغة: ورد في أساس البلاغة: "لزم" المال لزوما، وألزمته إياه ولزم غريمه لزم ولا ينتزع من لزمه حتى تنتزع الحق منه وفلان ملزوم وأخذ يمطلني فلازمته حتى استوفيت حقي منه، وألزمت خصمي إذا حاججته، والتزم الأمر وهذا ملزم الصقيل لخشبة التي يصقل عليها ومن المجاز التزمه: عانقه. "[2]

وجاء في معجم الوسيط: " لزم الشيء لزوم وثبت ودام ولزم وكذا نشأ عنه وحصل منه، وألتزم الشيء وأثبته وأدامه، وألزم فلانا الشيء فلانا الشيء أوجبه عليه، ويقال اعتنقه المال والعمل خصمي الحجة وغير ذلك ويقال: ألزمت خصمي حجته.[3]

فكلمة الالتزام كلمة قديمة في أصل اللغة العربية وقد تبين طباقا لما جاء في لسان العرب أن الكلمة مشتقة من الفعل لزم وهي من مادة الفعل الثلاثي وجاءت على الوزن "فعل" بكسر العين وأورد ابن منظور في لسان العرب بقوله: لزم الشيء يلزمه لزما

[1] عبد المجيد النجار، الرجع السابق، ص 27، 28 .

[2] أبو قاسم جار محمود بن عمر، أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 2، 1998، ص 166.

[3] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، د ط، 2003، ص 823.

لزوما، ولازمة وملازمة والتزمه وألزمه إياه فالتزمه ورجل لزمة يلزم الشـــيء فلا يفارقه، اللزام اللازمة للشيء والدوام عليه والالتزام: الاعتناق.[1]

حيت أصـــبحت تظهر في معاني الالتزام في اللغة فتأتي بمعنى: التعلق بالشـــيء والمداومة عليه وعدم مفارقته، أما الالتزام فقد يكون فيه مداومة على الشـــيء وعدم مفارقته لكن يصـعب في الغالب إكراه ولهذا يكون لدى الشـخص الملزم تصـلق بما التزم به ولا رغبة فيه.[2]

8/2اصـــطلاحا: إن فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة وهي وليدة هذا العصـــر [3]،وقد خصـصـــها المعاصـــرون في اسـتعمالاتهم الفنية والأدبية حتى أصـبح مصـطلحا من المصـــطلحات يعني المشـــاركة في حل مشـــكلاتهم حيث أخذوا يســـتعملون في اللفظ الأوروبي، الذي يعني التعاهد والارتباط بعامة هذه القضايا.

إن الالتزام يعني الموقف الصـــلب المحدد والواضـــح الذي يقف الأدبي مما يجري حوله، بحيث يدرك مســـؤوليته اتجاه القضـــايا أمته إدراكا تاما ويعيش تجربة الجماهير العربية في تجربته من خلال المشـــاركة الفعالة في معارك نضـــالها والمعاناة الروحية والفكرية لمشكلاتها الكبرى ضمن إطار الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية.

وقد ظهر الالتزام نتيجة لاحتكاك الأدب بمشـكلات الحياة التي يعيشـها وإدراكه لخطورة الدور الذي يقوم به إزاء هذه المشكلات.

---

[1] ابن منظور، لســـان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، مج 12، ط 1، 2003، ص 541،542.

[2] ناصر عبد الرحمان الخنبن، الالتزام الإسلامي في الشعر، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط 1، 2003، ص 25.

[3] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، ط 5، 1995، ص 12.

لذلك يتأثر الأديب بالحياة الخارجية السائدة في بيئته القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع والأدب حين يتأثر بالمجتمع فإنما يعكس فهمه على هذا المجتمع والأدب تصوير لهذا الفهم ونقلا له. [1]

عند العرب: يعتبر الالتزام مصطلحا حديثا لمدلول قديم حيث يعني المسؤولية والرعاية في تراثنا، يقول صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته".

فمن القضايا التي التزم بها العرب منذ النصف الثاني من القرن فمن العشرين إلى يومنا هذا هي: قضية الحرية، والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية وقضايا التحرر العالمية، وبذلك صارت مهمتهم الحقيقية هي: النقد، والمعارضة، والتنبؤ والعمل على تغيير المجتمع والعالم والتقدم بهما نحو الأفضل، لقد وعوا ظروف الوطن الاجتماعية والقومية والوطنية والمادية والمعنوية والسياسية وعيا تاما قائما على العلم والتأمل، ثم أحيان أخرى، والأديب الذي التزم موقفا معينا فكافح الجوع والمرض والجهل لا يمكنه أن أخذوا على عاتقهم خدمتها والالتزام بها فكانت مواقفهم انتقادية في أحيان ثورية في لحقق التزامه تحقيقا كاملا ما لم يخضع لقوانين العالم ويصطد بالأخطار الناجمة عن موقفه. [2]

[1] عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، ص 25.

[2] نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص 342.

الفصل الأول: البناء الروحي السليم

عند الغزالي

المبحث الأول: نظرية المعرفة عند الغزالي

المبحث الثاني: الأسس النظرية للبناء الروحي السليم الغزالي .

المبحث الثالث: الوسائل العلمية للبناء الروحي عند الغزالي .

المبحث الأول: نظرية المعرفة عند الغزالي.

يفرق الغزالي بين مهام كل دائرة من دوائر المعرفة فالحواس مصدر من مصادر المعرفة ولكن لو اعتمدنا على الحواس وحدها في جميع الموارد لو وجب رفض كل فكرة لا ندرك واقعها بأي من الحواس، كما أيضا العقل مصدر من مصادر المغرفة ولو اتخذنا من مصدرا من مصادر المعرفة، ولو اتخذنا من مصدرا وحيدا في كل مورد لا نكرنا كثيرا من الوحي والدين.[1]

لقد شك الغزالي في الحواس كآلة للمعرفة وشك في العقل ثم حدود معرفته، فتقدم نقد للحواس مما قلل من شأنها والاعتماد عليها وحدها بأدلة منها الكوكب نراه بحجم الدينار بينهما البراهين تثبت أنه أكبر من الأرض. [2]

كما نقد الغزالي العقل ويرى عجزه عن الوصول إلى المعرفة لخمسة أسباب، أولا نقص المرآة وهو قلب الصبي الذي لم يبلغ بعد سن التميز، ثانيا جمود الإنسان على تقليد المذهب الذي أخذه عن أبويه أوعن معلمه ثالثا كثرة المعاصي، فإن كدوتها وتراكمها على مرآة القلب وهو بمثابة صدأ يحول دون صور الأشياء فيها رابعة غلبة الأهواء والشهوات على القلب وانسياقه وراء الحرص على الطمع، خامسا انشغاله بتحصيل القوت واستغراق همه بطلب الأسباب المتعة واللذة والسرور وكل هذا يفيد العقل ويحد من قدرته على الوصول بنا إلى المعرفة الكاملة .[3]

---

[1] بدر عادل محمود، التجربة النورانية عند الإمام الغزالي من الأنا المنطقية إلى المنطقية المتعالية، دار الحوار، ط 1، 2006، ص 123.

[2] خليل محمد صبري، الفكر الفلسفي الإسلامي، مقدمة في علم الكلام والتصوف والفلسفة الإسلامية، دار لجامعة الخرطوم، د ط، د ت، ص 72.

[3] باسل فيكتور سعيد، منهج البحث عن المعرفة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، د ت، ص 200.

من خلال نقده هذا أخطى خطوة جريئة وهي أن المسألة لم تعد مسألة الشك في ذلك بل غدا الأمر لدى الغزالي مسألة الإيمان بعجز العقل والحواس، وهنا يقول هل العقل هو الطريق الوحيد للمعرفة ؟بمعنى ليس فوقه شيء فهذا الشك وكثرة التساؤل عن ذلك أدى غلى اليقين أساسه أن هناك معرفة هي فوق العقل والنبوة، [1]وبأن العقل قوة تفوقه وتدرك ما يعجز هوعن إدراكه إذا يقتصر على معرفة الواجبات والجائزات والمستحيلات، رغم أنه ظل وفيا للعقل يعرف قيمته على الرغم من نقده لأن طبيعة العقل صادقة ولم تحجبها الآراء الفاسدة والأوهام الموروثة والمكتسبة، فهو يأخذ بكل رأي معقول مهما كان مصدره يريد تربية العقل وتهذيبه بالشريعة، لهذا أكد أن العقل منزه عن الخبث الذي لا تشويه عاطفة مريبة تدفعه العقيدة إلى هدم العقيدة، [2]ويستخدم الغزالي قياس التمثيل فيمثل الشرع بالشمس، والعقل بالعين، فالشرع مثل الشمس، والعقل بوصفه عينا لا يرى الأشياء إلا في ضوء التعرف على الأسرار الباطنة، [3] ولكن الغزالي لا يكتفي بإدراك حقائق الإيمان عن طريق العقل بل يريد أن يعيشها عن طريق الذوق الذي لا يتحقق إلا بترويض العقل بالشرع، إن الغزالي قبل أن يعرف إدراكه لحقائق الإيمان إدراكا وجدانيا وهي وجود الله ووحدانيته وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، واليوم الآخر لا يتم إلا عن طريق الذوق الذي منشأه رياضة النفس وفقا لأوامر الشرع، بالتالي كان عليه أن يجتاز مرحلة الشك فيعاني معاناة من التمزق والضياع، وأن يعيش في متناقضات العقل لكي يستعيد ثقته به وإمكانه بقدرته على إدراك الحقائق .[4]

---

[1] القيومي محمد إبراهيم، الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، د ت، ص 187.

[2] أبوحامد الغزالي، القسطاس المستقيم، تحقيق، فيكتور شلحت، دار المشرق، لبنان، ط 2،1983، ص 28,

[3] بدر عادل محمود، المرجع السابق، ص 124.

[4] باسل فيكتور سعيد، المصدر السابق، ص 30.

ومادام أنه وجد في العقل طريقة نحو المعرفة التي لا شـــك فيها بعد أزمة عنيفة حيث خرجت نفسه إلى الصحة الاعتدال فقد استمسك به ميزانا صحيحا للمعرفة في كل مجالاتها ولم يكن العقل هنا هو العقل النظري بل كان العقل المتعالي الذي يرتبط بنور الإيمان وقد عبر الغزالي عن الكشف بأنه نور قذفه الله تعالى في صدره وهو يعبر عن حالة وجدانية داخلية لمحض عنها انشراح صدره فهو يقول ذلك النور هو مفتاح أكثر العلوم [1].

فالبعد الصوفي واضح في تكوين الرؤية المعرفية عند الغزالي في إشارته إلى أهمية الكشف الصوفي النوراني في الوصول إلى اليقين المعبر عن العلم اللدني أو العلم الثابت الذي يستحق بجدارة أن يسمى علما وهذا البعد الصوفي لا يتعارض مع البعد العقلي للتجربة وقد وهر للرؤية العقلية بل هو الحامل بصحة هذه الرؤية وذلك ينطبق عنده من رفضه أن يرتبط اليقين الكامل بالاحتمال لهذا رفض معرفة الحواس لأنها لا تمدنا باليقين الضروري، وهو ينطبق أيضا على المعرفة العقلية [2].

ولهذا تبني نظرية الكشف الصوفي مضمونها أن الحواس والعقل وسائل معرفة ظنية لهذا نلجأ للكشف كوسيلة للمعرفة اليقينية ومضمونه أنه بالرياضة الروحية يرقى الحجاب بين الإنسان وخالقه حتى يزول، فيلتقي الإنسان المعرفة تلقائيا مباشرة من الله بدون واسطة من الحواس والعقل.[3]

[1] بدر عادل محمود، التجربة النورانية عند الغزالي، مصدر سابق، ص 125.

[2] بدر عادل محمود، المصدر السابق، ص 45.

[3] خليل صبري، المرجع السابق، ص 73.

منهج المعرفة عند الغزالي:

يعتمد الإنسان في مرحلة الطفولة على الحواس لتحصيل المعرفة، فالعالم الخارجي بالنسبة إليه يتمثل في تلك الصورة الحسية البسيطة المنطبعة في نفسه، وهنا تكون معرفته محدودة جدا، مقتصرة على الجزئيات دون الكليات عندما تقع الحواس على الأشياء في العالم الخارجي تدركها متباينة فيما بينهما، لكن هذا التباين لا يعد كليا بل هناك صفات مشتركة تجمع عددا من الأفراد وتميزهم عن عدد آخر، كما تميز هذا العدد الصفات الضرورية من الصفات العرضية، كل هذا يتم عن طريق التجريد الذي هو قوة من قوى النفس في نظر الغزالي الذي قال :"إن انتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزيئات على سبيل تجريد لمعانيها عن المادة وعن علائق المادة ولواحقها ومراعاة المشترك فيه والمتباين به والذاتي وجوده والعرضي وجودة فيحدث في النفس عن ذلك مبادئ التصور في استعمال الخيال والوهم مثل الجنس والعضل والعرض العام والعرض الخاص."[1]

يعقد مقارنات بين الأشياء التي تقع عليها الحواس حيث يجمع بين الأشياء المشتركة في بعض الصفات ضمن إطار واحد نسميه الكلية ويبعد عنه الأشياء الأخرى ليدرجها في إطار آخر مناسب لها من هذا المنطلق يمكن أن نقول أن الغزالي لم يكن عقلي خالصا في تفسيره نشأة المبادئ التي تعد من الكليات، ولم يكن تجريب خالصا أيضا بل كانت له نظرة توفيقية موفقة إلى أبعد الحدود باعتباره أن القوة التي يتم بها التجريد عقلية أما مادة التجريد فهي حسية وبالتالي يتم حصول الكليات في العقل وبالتفاعل بين العقل والتجربة الحسية إذا يحصل الكلي في العقل والحواس معا، ويعطي أمثلة عن ذلك حين

[1] أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 69،70.

يقول:" إن من رأى الماء حصـــل في خياله صـــورة فلو رأى الدم بعده حصـــلت صـــورة أخرى، فلو رأى ماء آخر لم تحدث صورة أخرى بل الصورة التي انطبعت في خياله عن الماء مثل كل واحد من آحاد المياه، فقد يظن أنه كل بهذا المعنى فكذلك إذا رأى اليد مثل حصـل في الخيال وفي العقل وضـع أجزائها بعضـها مع بعض وهو انبسـاط الكف وانقسـام الأصـابع عليه وانتهاء الأصـابع على الأظافر ويحصـل مع ذلك صـغره وكبره ولونه فإن رأى يد أخرى تماثلها في كل شـــي ء لم تتجدد له صـــورة أخرى بل لا تؤثر المشاهدة الثانية في إحداث شيء آخر جديد في الخيال يتبين لنا من خلال هذا أن العقل يقوم بعملية تصنيف الموجودات على أساس الكليات[1].

عندما تتجه حواســنا إلى العالم الخارجي لا يدرك العقل الأشــياء الموجودة في هذا العالم منفصــلة عن بعضــها البعض بل يدرك العلاقات الموجودة فيما بينها ليتســنى له ضــبط المقدمات التجريبية التي تســاعده على تحديد القوانين غير ناشــئة عن اســتدلال استقرائي خالص بل هي ناشئة عن قياس صوري أيضـا: " تحصيل المقدمات التجريبية وهو أن يوجد بالحس محمول لازم الحكم لموضــوع ما حكمت بالإيجاب والســلب أوتال موجب الاتصــال أو مســاوية أو موجب العناد أو مســاوية وليس ذلك في بعض الأحيان دون بعض على المساواة بل دائما حتى تسكن النفس على أن طبيعة هذا المحمول يكون فيه أو ينافيه لذاته لا بالاتفاق فيكون ذلك اعتقادا حاصـــلا من حس وقياس أما الحس فلأجل مشــاهدة ذلك، أما القياس فلأنه لوكان اتفاقا لما وجد دائما في الأكثر،[2] يدل هذا القول على أن الغزالي لا يرى في الاسـتدلال الاسـتقرائي عملا تجريبيا خالصـا بل عمل

[1] أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص 172،173،

[2] أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 101،102.

عقلي أيضا فالحواس في هذه الحالة تقوم فقط بعملية نقل الوقائع التي تحدث في الطبيعة لكن من أين تأتينا الثقة بأن ما شـــاهدناه في العالم الخارجي يحدث دائما بنفس الطريقة بحيث يمكننا أن نعمم ذلك الحكم الخاص على كل الحوادث المشـــابهة لتلك التي شـــاهدناها يرى الغزالي في هذه الحالة ضـــرورة تدخل القياس ففي عملية التعميم تقوم بإسناد الأحكام الخاصة الحاصلة في النفس عن طريق التجربة الحسية إلى مبدأ مفاده أن الاتفاق الحاصل في العالم الخارجي بين موضوع ومحمول أوبين مقدم وتال في عدد معين من الحالات يمكن أن يحصـل حصـولا دائما أو أكثر في حالات أخرى مشـابهة لتلك التي شاهدناها وهذا المبدأ يعتبر ضروريا لبناء أي قانون علمي. [1]

مصـادر المعرفة عند الغزالي: يرى الغزالي أن المعرفة اليقينية تقوم على أربعة مصـادر رتبها الغزالي على النحو التالي:

1/الحواس: ويرى الغزالي أن من مصادر المعرفة الحواس، وقد قسم الغزالي الحواس إلى أقسام بين فيها أن أول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناس الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسـة، وهي قاصـرة عن إدراك الألوان والأصـوات قطعا، وهي كالمعدوم في حق اللمس، ثم تخلق حاسة البصر فيدرك بها الألوان والأشكال وهي أوسع عوالم المحسوسات، ثم ينتفخ فيه السمع فيسمع الأصوات والنغمات، ثم يخلق له الذوق إلى أن يجاوز عالم المحسوسات، فيخلق التمييز في سن السبع سنين وهو طور آخر من أطوار وجوده يدرك فيه أمورا زائدة على عالم المحسوسات، ولا يوجد منها شيء في عالم الحس المادي.[2]أما عن تجربته بالمعرفة الحسية، وما آل إليه أمره فذكر انه ظل يقتبس المعلومات عن طريق الحواس، وأنه أتقن هذه العلوم المكتســبة عن طريقها، ثم أمعن النظر فيها، نما إذا كان يمكنه الشـــك فيها أو الأمان فيها من الخطأ، ذلك أن

[1] محمد غازي، فلسفة العقل عند أبو حامد الغزالي، مجلة القاعدة، مجلد 4، ج 1، جوان 2012، ص228.

[2] الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، ص 41.

المقصود هو العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ويرى في نفســـه أنه لا بد له من طلب الحقيقة، ما هي؟ ومعياره في ذلك: الأمان من الخطأ، وكل علم لا أمان معه من الخطأ، فليس بعلم يقيني عنده.

حتى ينتهي به طول الشـــك والنظر إلى أن اعترفت له الحواس بالعجز عن إدراك حقائق الأمور أو العلم اليقيني الذي هو هدف المعرفة عند الغزالي، ذلك لأن أقوى الحواس، وهي حاســة البصــر، عندما تنظر إلى الظل تراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم التجربة والمشـــاهدة بعد الســـاعة، يغرف أنه لم يتحرك بغتة واحدة بل على التدرج، حتى تتوارى حالة الوقوف، وأيضـا كالنظر إلى الكواكب، فترى صـغيرة، ثم بالأدلة الهندســية يتبين أنه أكبر من الأرض، [1] وبهذا يظهر أنه بعد إخضـــاع الحواس لمذهب المنهج الشـــكي أن الحس قد يحكم بإثبات الشـــيء، ثم يأتي العقل ويحكم بنفيه حكما لا سـبيل لمدافعته، وهذا كله دليل على خطأ الحواس، ولا أمان مع الخطأ، بالتالي لا ثقة بها وحدها .

وقد نتج من هذا الرأي أن قرر الإمام الغزالي أن هذا النوع من الإدراك البهيمة، حيث أن في إدراكها نقصـا، ويتبلور نقصـانها في أنها مقصـورة على الحواس والحواس معزولة عن الإدراك إذا لم يكن مماســـة أو قريبة منه، فاللمس والذوق يحتاجان إلى المماسـة والسـمع والبصـر والشـم بحاجة إلى القرب، فالموجودات التي لا يتصـور فيها المماســـة ولا القر بالحواس معزولة عن إدراكها، [2]وهكذا يظهر أن الإمام الغزالي قد فقد ثقته جملة واحدة من الاعتماد على الحواس وحدها في المعرفة اليقينية إلا فيما خلقت

[1] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 12.

[2] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى، تح: بسام عبد الوهاب الجابي الجفان والجابي، ط1، 1407هـ، 1987م، ص 47.

لها، وبناءا على ذلك كذب الغزالي الحواس في كونها تدرك بها حقائق الأمور، ورأى أن الحواس من مصادر المعرفة إلا أن المعرفة الحسية أضعف درجات المعرفة، فالمعرفة الحسية عند الإمام الغزالي مكملة بغيرها، لأن الحواس تكمل بغيرها، لهذا ينتقل إلى تجربة المصر الثاني هو العقل .

2/العقل: ويرى أن العقل **بالاشتراك** يطلق على أربعة معان [1]:

الأول: العقل وصف يفرق به الإنسان عن سائر البهائم، وهو الذي يستعد به الإنسان لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وبعبارة أخرى: تلك الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم النظرية، ويشبه نورا يقذفه الله في القلب، وبه يستعد لإدراك الأشياء.

الثاني: العقل هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجوار الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانيين في وقت واحد.

الثالث: العقل علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فكل من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال له: "عاقل " في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة يقال له غبي، أو غمر أو جاهل، وهذا النوع من العلوم يسمى عنده عقلا.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، ويقرها، فإذا حصلت على هذه القوة، يسمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر إلى العواقب.

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1، ص 85،86 .

وبناءا على ذلك قسم الإمام الغزالي العقل من حيث المصدر إلى قسمين غريزي ومكتسب، الغريزي: هو القوة المستعدة لقبول العلم ووجوده في الطفل كوجود النخلة في النواة والمكتسب المستفاد: وهو الذي يحصل من العلوم إما من حيث لا يدري كفيضان العلوم الضرورية عليه بعد التميز من غير لا يعلم، أومن حيث يعلم مدركه وهو التعلم ويرى أن القسم الأول من العقل الذي هو القوة التي يستعد بها الإنسان لإدراك الأشياء من العلوم النظرية أساسا وسماه:" نور البصيرة ". [1]

والمعنيان الأول والثاني للعقل: أساسهما الطبع والثالث والرابع، أساسهما الاكتساب ويرى التفاوت والزيادة تكون في هذه كل هذه الأقسام إلا القسم الثاني، الذي يعد علما يخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز والناس في ذلك النوع سواء.[2] وبعد أن شك الإمام الغزالي في ثقة الحواس، خاض التجربة مع العقل، حيث يحكي تجربته ومعركته مع الحكم العقلي فيقول: " فقلت بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر ثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما، موجودا معدوما، واجبا محالا فقالت المحسوسات:" بما تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات، كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي، فجاء العقل حاكم فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي فلعل وراء إدراك العقل حاكم آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك لا يدل على استحالته، وبهذا يرى الإمام الغزالي أن العقل مع معظم شأنه عاجز عن إدراك ما وراء الطبيعة من الغيبيات التي

[1] أبو حامد الغزالي، ميزان العمل، ص 123.

[2] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 1، ص85،89.

هي من اختصـاص الأنبياء، لذلك فإن أسـمى وظيفة للعقل، هي أن يعرف الناس عظم مكانة الأنبياء، ويشهد للنبوة بالتصديق والإتباع ولنفسه بالعجز عن إدراك حقائق المعرف اليقينية التي لا تدرك إلا بعين النبوة، وأن يأخذ بأيدي البشـر ويسـلمها إلى الأنبياء الموحى إليهم المبصـرين بعين النبوة، تسـليم العميان إلى القائدين، وتسـليم المرضـى المتحيرين إلى الأطباء المشـفقين، وهنا يقف دور العقل عنده، فالعقل معزول عما بعد ذلك إلا أن يفهم ما يلقي إليه الطبيب [1].

والمعرفة عند الغزالي لها صفتان رئيسيتان هنا:

الأولى: معرفة نسبية: وهو يستند إلى الأمثلة المألوفة، فلو أن مجموعة من العميان لم يروا الفيل قط ولم يعرفوا وصفا له، ولو علموا بمجيء هذا الحيوان، ثم أرادوا تكوين فكرة عنه، فإن تحسـسـوا هذا الحيوان فقد يقع أحدهم على رجل الفيل، والآخر على نابه، والثالث أذنه ثم طلب متهم أن يصفوه، قد يقول أحدهم إن الفيل شبيه بالعامود، ويرفض الثاني هذا الرأي مؤكدا أن الفيل كالوتد، ويذهب الثلث أن الفيل كالخيمة الكبيرة، وهكذا يصف كل منهم الفيل حسب العضو الذي يمسه، وكل واحد بجانبه الحق لأن كلا منهم صدق في صدق قوله ولكن غاب عن علمهم وصفه ككل،[2] وهذا صحيح بالنسبة إلى معظم الوسائل التي يتم البحث عنها، في أن المعرفة تختلف من شخص إلى آخر بناءا على اختلاف رؤية الأشخاص للحقيقة وما يتوصلون إليه من خلال أدواتهم المعرفية ,

ويرى أن التفاوت يعود سببه إلى تفاوت النفوس في العقل، حيث إن التفاوت بين الناس حاصـل إلا في العلم الضـروري بجواز الجائزات و اسـتحالة المسـتحيلات، حيث أن

[1] الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، ص 46.

[2] الرشاد عبد الله زاهي، الفكر التربوي المعاصر، عمان، دار وائل للنشر، ط 1، 2004، ص 454.

الاثنين أكثر من الواحد واستحالة كون الجسم في مكانين والتفاوت بين الناس أيضا يتطرق إلى التفاوت الناس في استيلاء القوة قمع الشهوات، فالسيطرة على الشهوات تختلف من شخص إلى آخر، والعلم الحاصل يختلف بقدرة بعضهم على ترك بعض الشهوات، لأن الشهوات تكبل العقل، ويظهر تفاوت الناس أيضا في علوم التجارب، حيث يظهر التفاوت بكثرة الإصابة، وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوت الممارسة والتفاوت في الغريزة هو الأصل [1].وينكر الغزالي على من ينكر الاختلاف بين الناس، فمن أنكر تفاوت التفاوت في هذه الغريزة فكأنه منخلع من ربقة العقل، فلولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم / ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى الذي يفهم بأدنى رمز أو إشارة، وغلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون تعليم، ثم يستشهد بالأدلة النقلية والعقلية ليثبت صحة قوله .

الثانية : المعرفة فوق العقل والإدراك : يقول الغزالي ووراء طور العقل طور آخر تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأمور أخرى العقل المعزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن التمييز، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركا العقل لأباها ة استبعدها، ويقول : ليس من الضروري تكون الحقائق مما يؤديها العقل فهنالك من الحقائق ما يعجز عن إدراكنا الوصول إليها وليس مما يخالف الصواب في نظره وجود افتراض قائل بوجود دائرة داخل أخرى فوق دائرة العقل، وإن شئت فقل دائرة تجلي رباني، ونحن نجهل سنن تلك الدائرة ونواميسها جهلا تاما، فإننا نجد الكفاءة في قدر العقل على الاعتراف بإمكانها .[2]

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1، ص 87،89.

[2] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، مطبعة الصباح، دمشق، 1990، ص 34.

في كلام الغزالي عن الإدراك فأنه يقسمه إلى إدراك حسي وإدراك معنوي، أي الكشف، والإدراك الحسي يتعلق بالعلم المادي ويدرك الحواس والإدراك النفسي فيتعلق بالعالم الخفي عالم الملك والملكوت إلا أن الإدراك النفسي محدود بقيود الجسم ولذا يجب أن يتعر منها بالتطهير الجسمي والمادي،[1] ويتضح مدى تأثر فكره بالنزعة الصوفية في هذا التفسير، ولذلك فإن الغزالي يرى أن المعرفة لا تقتصر على ما وجد في عالم الشهادة المحسوس بل تتعداه إلى عالم آخر وهو عالم الغيب وهذا العالم لا يصل إليه عقل الإنسان وحواسه، لأنه فوق إدراكهما ولا يمكن تحصيل معرفته إلا عن طريق الوحي، فهو بذلك يقرر أن ميادين المعرفة، ميدان عالم الشهادة ويدرك بالعقل بإرشاد الشرع ويدرك بالحواس بإرشاد العقل والشرع، وميدان عالم الغيب ويدرك الشرع.

ويظهر هذا في شرحه لسورة النور أن العين عينان، ظاهرة وباطنة والظاهر من عالم الحس والشهادة والباطن من عالم الملكوت ويسمى عالم الملكوت بالعالم العلوي والعالم الروحاني والعالم النوراني، ويسمى عالم الشهادة عالم السفلي والجسماني والعلماني ونسبتهما إلى بعضهما كالظلمة والنور، وكالسفل إلى العلو، وعالم الملكوت لا يمكن الوصول إليه من خلال نور العقل، بل من خلال الأنبياء [2].

وخلاصة رأي الغزالي في حاكم العقل هي أن العقل نطاقا واسعا، يدرك المعلومات أكثر وأوثق من الحس وأن حكمه أصدق بكثير من حكم الحس إلا أن إدراكاته مع اتساعها، لم تدرك المغيبات وأمور ما وراء الطبيعة، وهو يعد أحد أدوات

[1] محمد منير مرسي، التربية الإسلامية وأصولها، ص 367.

[2] أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار في توحيد الجبار، تح: سميح دغيم، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط 1994،1، ص 51، 53.

المعرى ومصـــادرها إلا أنه يمكن الوثوق به في ميدان عالم الغيب الذي لا يمكن إدراكه إلا عن طريق مصدر ثالث للمعرفة اليقينية وهو النبوة.

3/النبوة: ويرى أنها وصول خبر من الله تعالى بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده، فهي إذا علاقـة بين الوحي والأنبيـاء، ويقرر أن من فهم معنى النبوة وأكثر النظر في القرآن الكريم والأخبار الصـحية، حصـل له العلم الضـروري بكونه صـلى الله عليه وسلم في أعلى درجة النبوة، أما الرسالة فهي تكليف الله تعالى أحد الأنبياء بإبلاغ الناس شرعا وحكما، فالرسـالة إذا علاقة بين النبي وسـائر الناس، والنبوة أشـرف من الرسـالة، لأنها صلة النبي بخالقه، والرسالة صلة النبي بالناس[1]، ويبدوا أن الغزالي اجتهد في بيان الفرق بين النبوة والرسـالة إلا أن كل منهما يعد مصـدرا واحدا لتوصـيل المعرفة الربانية، فالنبوة الحصـول على المعرفة من الخالق عن طريق الوحي، ثم توصـيلها إلى الناس عن طريق الرسالة .

وبعد أن قرر الغزالي عجز كل من العقل في إدراك المعرفة اليقينيـة، يرى وجود وراء العقل طورا آخر تنفتح فيه عين أحرى يبصـر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، ولا طريق لمعرفتها إلا عن طريق النبوة، فهي طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل بل الإدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ولهذا لا بد من طلب اليقين بالنبوة، وعند الحديث عن العلاقة بين كل من العقل ولنقل فنه يبين أن أمور تعلم لا ضـــرورة مباشـــرة، ومنها ما لا يعلم بالضـــرورة، فأما من يعلم بالضـــرورة كالبديهيات والمســلمات، فإن الإنســان يغرقها معرفة مباشــرة ولا تحتاج إلى اســتدلال

[1] أبو حامد الغزالي، الإقتصـاد في الإعتقاد، تح: إنصـاف رمضـان، دمشـق، بيروت، دار قتيبة للنشـر والتوزيع، ط1، 1423هـ، 2003م، ص137.

وبراهين لأنها صادقة وواضحة بذاتها، وأما ما لا يعلم بالضرورة فإنه ينقسم إلى أقسام **الأول:** ما يعلم بدليل العقل دون شرع ـ أي المعرفة العقلية **والثاني:** ما يعلم بالشرع دون العقل أي عن طريق النقل كمعرفة الغيبيات والمسلمات، والثالث : ما يعلم بالعقل والشرع معا، كرؤية الله تعالى، وخلق الله تعالى للمخلوقات هو بذلك يرد على المعتزلة لاعتمادهم على العقل كدليل مستقل عن النقل ومقدم عليه، فالعقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشـــرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، أي أن العقل لا يهتدي إلى التفاصيل الشرعيات تاره، والشرع تارة يأتي بتقرير ما استقر عليه العقل، وتارة بتبنيه الغافل وإظهار الدليل لحقائق المعرفة وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقده، وتارة بالتعليم وذلك في الشـــرعيات وتفصـــيل أحوال المعاد، فالشـــرع نظام الاعتقادات الصـــحيحة والأفعال المســـتقيمة والدال على مصـــالح الدنيا والآخرة، [1] وهكذا يحدد الغزالي طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل، وهي علاقة تكامل لا تعارض بينهما، وإن اجتماعهما معا " نورا على نورا "وأن بتكاملهما تتحقق المعرفة اليقينية ولا شـــك من أن للعقل أثرا الوحي وللوحي أثرا في العقل وهذا ما يظهره الغزالي بدقة وموضوعية .

4/الكشف: ويعد الكشف عند الغزالي مصدرا من مصادر المعرفة اليقينية بواسطة نور يقذفه الله تعالى في الصدر على شكل إلهام دون عناء وذلك النور مفتاح أكثر المعارف، ويرى أن من حصر الكشف في الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة، وقد سماه الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرح، فلما سئل عن الشرح ومعناه في قوله تعالى:

[1] أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 2، 1975م، ص 58،59.

" فمن يرد الله يهديه يشـرح صـدره للإسـلام ."[1]قال:" هو نور يقذفه الله تعالى في القلب .فقيل : وما علامته ؟فقال :" التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود."[2] وهذا النور ينبغي أن يطلب بالكشـف، وهو ينبثق من الجود الإلهي من بعض الأحيان، ومن ذلك فإن مكان العلم هو القلب، فهو كالمرآة التي تنطبع فيها الصـور، وللحقيقة صـور تنطبع في مرآة القلب، وتتضـح بها، ولذلك فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل حقائق الأشـياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشـياء، والعلم عبارة عن حصـول المثال في مرآة القلب .[3] أذا فالمعرفة الكشـفية عنده :"هي نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صـفاته المذمومة / وينكشـف من هذا النور أمور كثيرة تتضـح من خلالها المعرفة الحقيقية في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ومعرفة معنى النبوة، والوحي والملائكة والشـياطين وغير ذلك، ويبدو أن المعرفة القلبية الكشـفية عنده مرتهنة بمعرفة الله ومحبته، ولذلك يسـتطيع العارف أن يصـل بها إلى المعرفة الحقيقية، وذلك من خلال الصـوفية، متأثرا بالمدرسـة الصـوفية التي تنتمي لها ويؤكد على العلاقة بين العقل والكشـف: فالعقل لا يصـطدم مع الكشـف في شيء، غاية ما هنالك أن العقل لضعفه وقصوره يعجز أحيانا عن أن يبدي الرأي في مسـألة ما، فيسـعفه الحي أو الإلهام بتباينها، فتارة يدرك العقل وجه الحكمة فيها، وهنا يسـتطيع أن يشـد من أزر الوحي والإلهام، وتارة لا يدرك وجه الحكمة، فيقف صـامتا لا يملك المسـاعدة، فهو يريد بذلك ألا يسـتغني عن العقل كلية، بل يجعله شـارحا للكشـف

[1] سورة الأنعام، الآية 125.

[2] ابن الكثير، تفسير القرآن الكريم، بيروت دار الجيل، د ط، د ت، ص 166.

[3] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 13،14.

[1]، وهذا يفســـر الظـاهرة التي تبدوا في بعض كتبـه من مؤازرة العقل لوجهـات النظر الصـــوفية التي يبثها بعد الاهتداء إلى نظرية الكشــف الصـــوفي، ولم يعبر الغزالي عن كشوفه بطريقة صريحة وواضحة، بل أحاط نظرياته برعاية العقل، وقوله بنظرية المعرفة الصـــوفية لا يعني نفي نظرية المعرفة التي مصـــدرها النبوة أو العقل بل المقصـــود هو الاعتراف بأن لكل كمهك طريقا تؤدي إلى المعرفة، والعلم يحصـــل من طريقين : التعلم الإنســاني، والتعلم الرباني، فالتعلم الإنســاني يكون على وجهين، أحدهما من خارج وهو التحصــيل بالتعلم، والآخر من داخل وهو الاشــتغال بالتفكر، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم الظـاهر، ثم أفاض في بيان طريق التعلم الربـاني [2]. وقدم الغزالي نظريـة للمعرفة على أسـاس فلسـفي ويظهر ذلك جليا في رسـالته مشـكاة الأنوار شـارحا قوله تعالى: "الله نور السموات والأرض ."مفسرا لنور الأنوار تارة بأنه هو أصـل الوجود وتارة أخرى بأنه أصل المعرفة [3].ولا تعارض بين التفسيرين إذا المعرفة من أفراد الوجود، كما لا تعارض بين ما قدمه من رؤية معرفية في مشكاة الأنوار وبين ما ذهب إليه في غيرهما من القول بالعلم اللدني والكشف الصوفي، إذا يؤول رأيه في الجميع إلى معنى واحد ويبين أنه من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله تعالى، فهذا الحدس كافيا لإثبات وجود الله .[4]

---

[1] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تح: الوهاب الجابي للطباعة والنشر، ط 1، 1407هـ، 1987م، ص 150، 156.

[2] أبو حامد الغزالي، الرسالة اللدنية، شركة الطباعة الفنية، د ط، د ت، ص 115،111.

[3] تفسير سورة النور، من كتاب مشكاة الأنوار في توحيد الجبار، تح: سميح دغيم، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط 1، 1994، ص43.

[4] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 14،13.

وبذلك يرى أنه لا تعارض بين معقول ومنقول إلا إن الغزالي لم يصـــل إلى هذا باستعماله الكلام ودلائله ولا بالمنطق والفلسفة وبراهينهما، بل بنور إلهي يقذفه الله تعالى في الصـــدر وهذا النور يعد مفتاح أكثر المعارف، هو ليس محتاجا إلى دليل منطقي وترتيب كلامي بل يعرف بنوره يقذفه الله في قلب المؤمن دون أي تعقيد وهو أصـــل المعرفة اليقينية، والكشـــف عند الغزالي: هو الإلهام وهو: "كل ما يلقيه الله في ولم يكن للعبد فيه حيلة أو تعلم أو اجتهاد وهذا النوع لا يرقى إلى درجة اليقين التام إلا بشـــروط كأن يكون لنبي أو لولي [1].

وقد ورد في القرآن الكريم نماذج من هذا النوع، قال الله تعالى: " ولما فصـــلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا تفندون." (يوسف 94) وهذا دليل على أنه نوع من الإدراك خارج عن الحواس تحصـــل المعرفة به من خلال الإلهام دفعة واحدة، وهوما حصل مع يعقوب عليه السلام عندما أحس باقتراب أثر يوسف عليه السلام إلهاما، إلا أنه جعل الكشف مصدرا رئيسا في المعرفة اليقينية متأثرا بالمدرسة الصوفية، وبناءا على ذلك يظهر أن الغزالي على الخلاف الجوهري مع الفلســفات التربوية، فكل فلســفة منها ترى أن مصــدر المعرفة الحقيقية إما العقل أوالحس أوالحدس، حيث إن الفلسفة المثالية ترد مصــدر المعرفة في الغالب إلى العقل، فالمعرفة عندها تنبع في الأســاس من العقل والمعرفة التي تنبع من العقل هي معرفة أولية مختلفة عن الخبرة، لأن المعرفة التي عن الخبرة غير واضحة، وكثيرا ما تخدع وهي لا تحوي ضمانا للحقيقة، فالعقل مصدر لكل صنوف المعرفة الحقيقية، والمعرفة الحقيقية تتميز بالضرورة والشمول ويقصد بالضرورة أن المعرفة صادقة، والشمول أن الحكم الذي نطقه صادق في كل زمان ومكان بصرف

[1] رياض جنزرلي، الرؤية الإسلامية لمصادر المعرفة، بيروت، دار النشاط، ط 1، 1994هـ، ص 60.

النظر عن تغير الظروف والأحوال، وجاءت الفلسفة الواقعية لتناقض الفلسفة المثالية، وتختلف معها جذريا فآمنت بالواقع المحسوس الماثل للعيان، وأن لهذا الواقع الوجود المستقل عن العقل والمثل فالواقع هو مصدر الحقائق التي تكون كامنة في الأشياء وليس بالأفكار، وأن الأشياء موجودة سواء أكان لدينا فكرة أم لا والعقل عند الواقعيين ليس إلا حصيلة التجارب والخبرات الحسية والمادية من العالم المادي، والمفاهيم والمعاني مأخوذة أساسا من مواقف وأشياء مادية، والعقل ونشاطه نابعان وتابعان للعالم المادي، وأي تغيير في الواقع المادي يتبعه في عالم الفكر،[1] وهم يرفضون القول بأن العقل يفرض مقولاته الخاصة بالحواس، ويقولون بأن العالم الذي يدرك بالحواس ليس عالما خلق بعقول البشر إنما العالم كما هو، وهو إسقاط العقل [2]، ولذلك فهي تؤمن بالحواس وتعدها من أدوات العقل، وهي تنقل وقائع العالم الخارجي وصورتها إلى عقل الإنسان، وهم يعللون خداع الحواس أو قصورها بإخضاعها لسيطرة العقل وإحكامها، والحواس تساعد العقل على التأكد من القضايا العقلية التي يصل العقل وإثباتها عن طريق التجريب والخبرات الواقعية،[3] فمصدر المعرفة الحقيقية الحواس وكذلك فالتجربة تعد مصدرا من مصادر المعرفة، فالمنهج التجريبي أثبت الخطأ العميق الذي يقوم عليه الرأي القائل بأن المعرفة لا يمكن بلوغها إلا بواسطة قوى الذهن وحدها.

والغزالي بحديثه عن مصادر المعرفة يتفق مع الفلسفة المثالية بأن العقل يعد مصدرا من مصادر المعرفة، ولكنه لا يتفق معها بأن العقل يوصل إلى معرفة يقينية

---

[1] جورج ف، نيلو، مقدمة في فلسفة التربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، ص 51.

[2] محمد فرحان، دراسات في فلسفة التربية، العراق، جامعة الموصل، وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي، ص 34.

[3] أحمد على الحاج، في فلسفة التربية، عمان، دار المناهج، ط 1، 2002، ص 34.

بمعزل عن مصـــدر الشـــرع وإرشـــاده، ويتفق مع كل من الفلســـفة الواقعية والفلســـفة البرجماتية بأن الحس والتجريب يعدان مصـدرا من مصـادر المعرفة، ولكن الحس منفردا يعد من أخس المعارف ولا يوصل إلى الحقيقة، ولا بد من الشك فيه، ويتفق مع المذهب الحدســي يعد مصــدرا للمعرفة، ومع أنه يرى أنه يوصــل إلى المعرفة اليقينية إلا أنه لا ينكر المصـادر الأخرى ويعد كل منهما مكمل للأخر، والأصـل في مصـادر المعرفة في الإسلام رفض الاقتصار على الاتجاه العقلي في الوصول إلى المعرفة، ورفض الاقتصار على الاتجاه التجريبي بإرجاع المعرفة إلى الحس وحده، وفي ذلك يقول الله تعالى: " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شـيئا وجعل لكم السـمع والأبصـار والأفئدة لعلكم تشكرون."[1](النحل 78)، وقد قرر الله تعالى في الآية أن الله جعل المعرفة منوطة بالحواس والعقل معا بإرشـاد منه، ولم يجعلها مقتصـرة على أجدهما، وبذلك تبرز نظرية المعرفة عند الغزالي، فهو يســتخدم الشــك المنهجي للبحث إلى المعرفة اليقينية، وهولا يؤمن إيمانا مطلقا بإمكان المعرفة وقدرة الإنسـان على بلوغ اليقين، وينكر قدرة الإنسـان على معرفة حقائق الأشـــياء، ولذلك فهو يختبر الحواس والعقل، ورغم أنه يعد الحواس مصـدرا من مصـادر المعرفة إلا أنها لا يمكن الحصـول بها على معرفة يقينية لأنه عند اختبارها باســتخدام المنهج الشــكي، يحكم بأن العقل فقد ثقته في الحواس لأن الحواس تخدع لذلك تعد أخس مصـــادر المعرفة ولا يوثق بها منفردة، ويشـــك في العقل لتفاوت العقول ولذلك المعرفة حاصـلة بالعقل نسـبيا، ولأن وراء العقل حاكم آخر ويعد القلب من أدوات المعرفة اليقينية بواســطة نور يقذفه الله تعالى في الصــدر عن شــكل إلهام دون عناء، والمعرفة القبلية الكشـــفية عنده المنتهية بمعرفة الله ومحبته، والعقل لا دور له إن

[1] سورة النحل، الآية 78.

كان خارج إطار الشـرع والمعرفة التي مصـدرها النبوة معرفة يقينية، والعلاقة بين العقل والشـرع علاقة تكاملية فكلاهما متلازمان تلازم السـبب والنتيجة، ولذلك فالمعرفة عنده نوعان، معرفة قلبية كشفية مصدرها الله تعالى يحصل عليها الإنسان بالكشف، ومعرفة عقلية مصدرها الشرع ووقائع الحياة يحصل عليها الفرد بالاكتساب والوعي والملاحظة، ولا بد من إرشاد الشرع للعقل إلى المعرفة اليقينية.[1]

وهو يدعو إلى التكامل بين مصـادر المعرفة وأن كل مصـدر لا يمكن أن يعد مصـدرا وحيدا للمعرفة، فالحس والعقل والنبوة والكشـف كلها مصـادر متكاملة تعمل مع بعضـها البعض، وأشـرفها النبوة والكشـف وأضـعفها الحس، وهو بذلك يخالف الفلسـفات التي تنظر للمعرفة نظرة جريئة ويظهر ذلك من خلال نظرتها الجزئية لمصـادر المعرفة، فالمعرفة الإنسـانية الحقيقية هي التي تأتي عن طريق الحواس الظاهرة والباطنة، وعمليات التجريب المختلفة التي تقوم بها هذه الحواس ـ مع عدم الثقة بها منفردة ـ مع الموازين العقلية والفطرية والمكتسبة، بالإضـافة إلى كل ما يوحي به الله تعالى لأنبيائه أو عباده الصالحين [2].

[1] الرشدان، تطور الفكر التربوي، ص 455،456.

[2] أحمد ضياء الدين حسين، رائده خالد حمد نصيرات، نظرية المعرفة عند الغزالي ومقارناتها بالفلسفات التربوية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، ع 39، 2016، ص 379.

المبحث الثاني: الأسس النظرية للبناء الروحي السليم عند الغزالي

إن البناء الروحي السليم عند الغزالي يتأسس على مجموعة من الأسس النظرية العميقة التي تنطلق من فهم شامل للإنسان، وطبيعة النفس وعلاقة العبد بربه ويمكن عرض هذه الأسس على النحو التالي:

1/محاسبة النفس: يقول الغزالي اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، ، وإذا أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، يستوفي منها ما تداركك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحب والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة، فيطالبها أولا بتصحيح الجواب عن الجميع ما تكلم به طول النهار ويتكل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره، وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله شربه ونومه، حتى عن سكوته إن لم يسكت؟ وعن سكون لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب عن النفس وصح عنده قدر أدنى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوبا له، [1]فيظهر الباقي على نفسه فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه. ويقول الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون، أما بعضها، فبالغرامة والضمان، برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك أو اشتغل بعده بمطالبة والاستيفاء، ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما بعد يوم وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة

[1] أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1، دار ابن الحزم، بيروت، لبنان، 1426هـ، 2005م، ص 1778،1779.

والباطنة، كما نقل عن توبة ابن صمة وكان بالرقة وكان محاسب لنفسه ـــفحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامه فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب، فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ثم خر مغشـــيا عليه فإذا هو ميت، فســـمعوا قائلا يقول: "يا لك ركضـــة الفردوس الأعلى، فهكذا ينبغي أن يحاســب نفســه على الأنفاس وعلى معصــيته بالقلب والجوارح وفي كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه. «ذلك لقوله تعالى:" أحصاه الله ونسوه."[1]

2/مجاهدة النفس: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر." قالوا يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ فقال: «هي مجاهدة النفس." وقال صلى الله عليه وسلم:" أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك." وقال :" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ."ويقول الغزالي اعلم أن النفس أخلاقها ذميمة غير مستقيمة، فإن فيها صغر حجمها، كما قلناه ما في الســموات والأرضـــيين وهي النار الوصـــدة فيها ذئاب الغيبة وكلاب الشــهوة، وســباع الغضــب ونمور المحالفة، وثعالب الحيلة، وكمين الشــياطين بعسكر الهوى، ومناجيق الامتحان ووسواس القبيح هذا كله ممكن تحت قلة قلعة النفوس محيط بربصـــها وحصـــنها واعلم أن القلب مدينة وســـاكنها الملك، وهي النفس اللطيفة المدركة، العالمة، الظاهرة، الربانية، الخارجة عن النفخة المشـــار بها إلى الروح، وهي محجوبة بالأبخرة الظاهرة المتولدة من دم القلب الذي هو الشكل الصنوبري واللحم المجوف، وهذا هو القلب المخاطب وإنما العقل فهو المخاطب [2]، من قوله تعالى : "واتقون يا أولي الألباب." (ســـورة البقرة 197)" وقوله: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له

[1] سورة المجادلة، الآية 6.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 534.

قلب." [1] وهو معنى: أذن واعية. "والنفس المشار إليها هي أسيرة الشهوات، مقيدة بقيد الغفلات مشوهة مستورة بالخيالات عاشقة للدنيا قد أطمعت ببخسها، فأصبحت محيطة، سكرى، قلقة، حيرانة، مشغولة الجسد الترابي تحمله للكنيف، مشغولة بتربيته وتغذيته، ألفته فعشقته، فإذا فرق بينهما، تأسف حتى إذا مر عليها يمثل ما خدمته بطول المدة نسبته وأنكرته كأنها ما عرفته، فإذا أردت إليه نفرت حتى تسمع إشارة القدس: "يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك." هذا الخطاب موجود لموجود غير مفقود إذا لا يجوز خطاب المعدوم. واعلم أن القلب هو المدينة التي أشرنا، فيقدم شيطان نفسك إلى تعبئة جيوش الهوى وعساكر حب الدنيا، ونقاب الوسواس، ونقاب التمني، ومشاغل سوء الظن، ومناجيق المخالفة، وطبول إساءة السمعة، وأسياف خيل الشر، وزحف رجل المكر لقوله تعالى: " وأجلب عليهم بخيلك ورجلك." فإذا أحاطت هذه الجيوش بهذه المدينة، لم يكن لها زاد ولا رجال من الأخلاق الحميدة، هلكت المدينة إن لم يدفع عنها البلاء وسلب الملك وخربت مدينته، نام عنها حارس الذكر، وتهدمت أبراج الصدق، وقعد شيطان الشمس على سدة أسرار القلب، وهتك أستار خزائن الأعمال، ودارت في المدينة عوانية الشك، وقطعت أشجار المعاملة، ونهيت أموال الأعمال، أكلت ثمار الأمال، ووقع الشك ي الكتاب، ونفرت النفوس عن مصاحبات الأصحاب، وعصى كل مولاه، وتبع كل منهم هواه، وكبكوا على مناخرهم في النار وقالوا يا ويلنا لقوله تعالى:" ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار، أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار."[2]

3 /الصبر : حقيقة الصبر ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى وهومن خاصية الأدمى الذي هو كالمركب من شعب الملكية وبهيمية لأن البهيمية لم يسلط عليها إلا عليها دواعي الشهوة والملائكة لم يسلط عليهم الشهوة بل جردوا للشوق إلى مطالعة جمال الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها فهم يسبحون الليل والنهار لا يغترون،

[1] سورة ق، الآية 27.

[2] سورة ص، الآية 62،63.

فليس لديهم داعية الشهوة، فلم يتصور الصبر لملك ولا بهيمة بل الإنسان سلط عليه جندان لا يتطاردان، أحدهما من حزب الله وملائكته وهو العقل وبواعثه والثاني جنود الشيطان وهي الشهوة ودواعيها .وشطر الإيمان إنما يتم الصبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :" الصبر نصف الإيمان. «لأن الإيمان لا يطلق على المعارف والأعمال جميعا وسائر الأعمال في طرفي الكف والأقدام والتزكية والتحلية لا يتم إلا بالصبر لأن جملة أعمال الإيمان على خلاف باعث الشـــهوة، فلا يتم إلا بثبات باعث الدين في مقابلته ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "الصوم نصف الصبر. «لأن الصبر تارة في مقابلة داعي الشهوة وتارة في مقابلة داعي الغضب والصوم هو كسر لداعية الشهوة [1].

درجات الصبر: يقول الغزالي الصبر له ثلاث درجات بحسب ضعفه وقوته:

كذلك يقول الغزالي في درجات الصـــبر: يقول الغزالي للإنســـان النســـبة للصـــبر ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يقهر داعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إلى هذه الحال بدوام الصبر.

الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، وهي أسوأ الأحوال.

الثالثة: أن تكون الحرب سجالا بين الهوى والضلال.

تحصيل الصبر: ويمكن تحصيل الصبر بإضعاف باعث الشهوة، وتقوية باعث الدين ويضعف باعث الشهوة وتقليل مادته من حيث النوع والكثرة، أو قطع أسبابه، أو تسلية النفس بمباح من جنس ما يشـــتهيه، ويقوى باعث الدين بأمرين، الأول إطماعه في فوائد

[1] أبي حامد الغزالي، مراجعة محمد بشـــير القفة، الأربعين في أصـــول الدين، ط 1، دار القلم، دمشـــق، 1424هـ، 2003م، ص 212،213.

المجاهدة بالتفكر في الأخبار الواردة عن الصبر وعواقبه، **والثاني**: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته.[1]

4/التوبة: التوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة قال الله تعالى: " توبوا إلى الله توبة نصوحا. "والأمر للوجوب وقال تعالى:" ولا تكونوا كالذين نسوا الله." يعني عاهدوا الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم: فأنساهم أنفسهم " يعني أنساهم حالهم حتى لا ينهوا أنفسهم ولم يقدوا لها خير لقوله صلى الله عليه وسلم: " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ."وذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه خرجت ذات ليلة بعدما صليت العشاء الآخرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بامرأة في الطريق[2]فقالت با أبي هريرة إني ارتكبت ذنبا فهل لي من توبة، فقلت من: ما ذنبك ؟قالت إني زنيت وقتلت ولدي من الزنا، فقلت هلكت وأهلكتني، والله مالك من التوبة، فخرت مغشيا عليها فمضيت، فقلت في نفسي أفتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فرجعت إليه فأخبرته بذلك فقال هلكت وأهلكت فأين أنت من هذه الآية :" والذين لا يدعون مع الله إله آخر." وقوله: "فأولئك يبدل الله سيئاتهم وحسنات." خرجت بذلك من يدلني على امرأة سألتني مسألة والصبيان يقولون جن أبي هريرة حتى أدركها وأخبرتها بذلك فشهقت شهقة من السرور وقالت إن لي حديقة جعلتها صدقة لله ورسوله سئل أحد العلماء هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت ؟فقال لأحكم في ذلك ولكن ذلك علامات أن يرى أن نفسه معصومة من المعصية ويرى الفرح عن قلبه غائبا والرب شاهد، ويقارب أهل الخير ويباعد أهل الفسق، فيرى القليل من الدنيا كثيرا والكثير من العمل الآخرة قليلا، ويرى قلبه مشتغلا بما فرض الله تعالى عليه ويكون حافظا للسانه دائم الفكرة ملازم الغم والندامة على ما فرط من ذنوبه، فيقول الإمام الغزالي في التوبة :الرجوع من المعصية إلى الطاعة ومن الطريق البعيد إلى الطريق القريب وتنظيم من

[1] زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، د ط، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص 175.

[2] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، تح: أبوعبد الرحمان صلاح محمد محمد عويضه، د ط، د ت، ص 24.

علم وحال وعمل، وكذلك كل مقام فالعلم هو الأصـــل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله تعالى أوالله تعالى، والحال ما ينشأ عنها من المواجيد، والعمل هوما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال، ويتقدم التوبة واجبان : **الواجبة الأولى** :معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب .[1]

الواجبة الثاني: أنه لا يستبد بالتوبة بنفسه لأن الله تعالى هو خالقها في نفسها ومسير أسبابها، وهومن الإيمان بالله تعالى لتعلقه بالقدرة، والثاني من الإيمان له لتعلقه بأخباره، أما أركانها أربعة: علم وندم وعزم وترك والقدر الواجب من الندم ما يحث على الترك، واعلم أن التوبة نصح من كل ذنب لا دون ذنب والله تعالى أعلم.

5/العلم والعمل: اعلم أن العلم والعمل لأجلهما خلقت السنوات والأرض وما فيهما، قال الله تعالى: " الذي خلق سبع سموات مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما."[2]

وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم ووجوب طلبه لا سيما علم التوحيد.

قال الله تعالى:" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني." وكفى بهذه الآية دليلا شـــرف العبادة ولزوم الإقبال عليها فأعظم بأمرين هما المقصـــودين من خلق الدارين فحق ألا يشتغل إلا بهما وألا يتعب إلا لهما ثم العلم هو أشرف الجوهرين، ولكن لا بد من العبادة مع العلم وإلا كان العلم هباء منثورا.

واعلم: أنه يجب تقديم العلم على العبادة لأمرين: إحداهما: لتصـــح لك العبادة وتســـلم.

والثاني: هو أن العلم نافع يثمر الخشـــية والمهابة لله تعالى في قلب العبد وهما يثمران طاعة ويحجزان عن المعصـــية بعون الله تعالى وتوفيقه، وليس وراء هذين مقصـــد للعبد

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، 162.

[2] سورة الطلاق، الآية 12.

في عبادة ربه سبحانه وتعالى. فعليك بالعلم النافع فيجب عليك أولا أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل عليه في نعته، فربما تعتقد اعتقادا في صفاته شيئا مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا. ثم عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشـــرعية لنفعله على ما أمرت به وما يلزمك تركه من المناهي الشرعية لتتركه.[1]

واعلم: أن العلم الذي طلبه فرض لازم لكل مكلف ثلاثة أنواع: **الأول:** علم التوحيد والذي يتعين عليك منه هو مقدار ما تعرف به أصول الدين وقواعد العقائد كافية فيه .

الثاني: علم السر وهوما يتعلق بالقلب وما ساعيه من مواجبة ومناهية.

الثالث: علم العبادات الظاهرة المتعلقة بالأبدان والأموال، وترك ما وجب عليك تركه فقد أديت ما أوجبه الله تعالى عليك وصرت من العلماء العالمين، وبالله التوفيق.

الاختصـار فعليك بلوقح الأدلة لشـخينا إمام الحرمين إلا قواعد العقائد، وإن أردت سـلوك طريق السلف الصـالح فعليك بكتاب نجاة الأبرار وهو آخر ما صـنفناه في أصـول الدين، فاقرأ ما شئت واعمل ما شئت فإن اللقاء قريب. [2]

6/الذكر والعبادة: يقول الغزالي في الذكر: اجعل قلبك قبلة لسـانك واشـعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية، واعلم بأن الله تعالى يعلم ســـتر قلبك ويرى ظاهر فعلك ويســمع نجوى قولك، فاغســل قلبك بالحزن وأوقد فيه نار الخوف فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك، كان ذكرك به مع ذكره لك قال الله تعالى:" ولذكر الله أكبر." لأنه ذكرك مع الغني عنك وأنت ذكرته مع الفقر إليه، فقال تعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب." فيكون اطمئنان القلب ي ذكر الله له ووجله في ذكره الله، قال الله تعالى: إنما المؤمنون الذين

[1] أبو حامد الغزالي، المصدر نفسه، ص 136.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص 542،543.

إذا ذكر الله ولجت قلوبهم:" والذكر ذكران: ذكر خاص بموافقة القلب في ســـقوط النظر إلى غير الله وذكر صاف بغناء الهمة عن الذكر[1]، قال رسول الله صلى عليه وسلم:" لا أحصـي ثناء عليك أنت كما وذكر صـاف بغناء الهمة عن الذكر." وقال صـلى الله عليه وسلم:" لا أحصـي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. "أما في العبادة فيقول الغزالي: اقبل على أداء الفرائض فإن ســـلم لك فرض فأنت أنت واطلب بالنوافل حفظ الفرائض وكلما ازددت فازدد شـــكرا وخوفا [2]، قال يحيى بن معاذ:" عجبت لطالب فضـــيلة تارك فريضـــة ومن كان عليه دين فاهدي إلى صـــاحب الدين مثل حقه كان مطالبا بالحق إذا حل الأجل." وقال أبوبكر الوراق: "ابذل هذا الزمان أربعة على أربعة الفضـــائل على الفرائض والظاهر على الباطن والخلق على لنفس والكلام على الفعل".

7/ الصحبة الصالحة: الغزالي يشدد على أهمية الصحبة الصالحة، ويرى أن السير إلى الله يحتاج إلى دليل خبير بالنفس وبطريق الله لذلك يقول: اعلم أن صـــاحبك الذي لا يفارقك في حضـــرك وســـفرك ونومك ويقظتك، بل في حياتك وموتك، هو ربك وســـيدك ومولاك وخالقك، ومهما ذكرته فهو جليســـك، إذا قال الله تعالى:" أنا جليس من ذكرني." ومهما انكســـر قلبك جزنا على تقصـــيرك في حق دينك فهو صـــاحبك وملازمك إذا قال الله:" أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ."

فلو عرفت حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا, فإن لم تقدر على ذلك في جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمنجاتك له, وعند ذلك فعليك أن تتعلم أداب الصـــحبة مع الله تعالى، وآدابها: إطراق الرأس، وغض الطرف، وجمع الهم، ودوام الصـــمت، وســـكون الجوارح، ومبادرة الأمر،

[1] أبي حامد الغزالي، منهاج العارفين، تح: الحاج فؤاد الدين السيد قوام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1388هـ، 1968م، ص17.

[2] ابي حامد الغزالي، منهاج العارفين، المصدر نفسه، ص 39.

واجتناب النهي،[1] وقلة الإعتراض على القدر، ودوام الذكر، وملازمة الفكر، وإيثار الحق على الباطل، والإياس على الخلق، والخضـــوع تحت الهيبة، والانتصـــار تحت الحياء، والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان، والتوكل على فضل الله تعالى معرفة بحسن الإختيار وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك في جميع ليلك ونهارك فإنها آداب الصـحبة مع صاحب لا يفارقك، والخلق كلهم يفارقونك في بعض أوقاتك .[2]

أما الإخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيفتان:

إحداهما، أن تطلب أولا شـروط الصـحبة والصـداقة، فلا تؤاخي إلا من يصـلح لإخوة والصداقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل. "فإذا طلبت رفيقا ليكون شـريكك في التعلم وصـاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال.

الأول، العقل: فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق.

الثانية، حسن الخلق: فلا تصحب من ساء خلقه، والذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة، وقد جمعه علقمه العطادي رحمة الله تعالى في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال: إن أردت صحبة الإنسان فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، اصـحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسـنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإذا حاولت أمرا أعانك ونصرك، وإن تنازعتما ي شيء آثرك.

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، المصدر نفسه، ص 423.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص 423.

الثالثة: الصلاح: فلا تصحب فاسقا مصرا على معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا". [1] فاحذر صحبة الفاسق، فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية لمعصية ويهون عليك أمرها، ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة، لا لفهم لها، ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه، والغيبة أشد من ذلك.[2]

الرابعة، أن لا يكون حريصا على الدنيا، فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى، فمجالسة الحريص تزيد في حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد في زهدك.

الخامسة، الصدق، فلا تصحب كذابا فإنك منه على غرور، فإنه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب.[3]

الوظيفة الثانية :مراعاة حقوق الصحبة، فمنها من انعقدت الشركة، وانتظمت بينك وبين شريكك الصحبة، فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفي القيام بها آداب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى" ودخل صلى الله عليه وسلم أجمة فاجتنى منها سواكين: أحدهما معوج والأخر مستقيم، وكان معه بعض أصحابه، فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال: يا رسول الله أنت أحق مني بالمستقيم، فقال صلى الله عليه وسلم "ما من صاحب يصحب صاحبا ولوساعة من نهار

[1] سورة الكهف، الآية 28.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 425.

[3] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 426.

إلا ويسأل عن صحبته هل أقام فيها حق الله تعالى أضاعه. آداب الصحبة الإيثار بالمال، فإن لم يكن هذا فبدل الفضل من المال عند الحاجة والإعانة بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير إحواج إلى التماس وكتمان السر وستر العيوب.

الوظيفة الثالثة: [1]وهم المعارف، فاحذر منهم فإنك لا ترى الشر إلا ممن تعرفه أما الصديق فيعينك، وأما المجهول فلا يتعرض لك، وإنما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم، فأقلل من المعارف ما قدرت، فإذا بليت بهم في مدرسة أو مسجد أو جامع أو سوق أو بلد، فيجب ألا تستصغر منهم أحدا، فإنه لا تدري لعله خير منك، لأن الدنيا صغيرة منك.

إن البناء الروحي عند الغزالي يقوم على التكامل بين الجانب المعرفي (العلمي) والسلوكي (العملي) مع التركيز على إصلاح القلب ومجاهدة النفس ومحاسبتها وهوفي كل ذلك متأثر بالتصوف السني الملتزم بالكتاب والسنة .

[1] أبو حامد الغزالي، مصدر سابق، ص 427.

المبحث الثالث: الوسائل العلمية للبناء الروحي السليم عند الغزالي

إن الوسائل العلمية التي اعتمد عليها الغزالي في البناء الروحي السليم متعددة ومتكاملة، وهي وسائل تربوية ومعرفية مستمدة من الشريعة ومن التجربة الروحية، وذلك لتفعيل وترسيخ البناء الروحي وهي تتكامل مع الأسس النظرية، تعد هذه الوسائل بمثابة خطوات علمية منهجية تهدف إلى تزكية النفس وتقريب العبد من الله تعالى نذكر منها مايلي:

1/التوحيد: فهو إفراد القدم عن الحدث والإعراض من الحادث والاقبال على القديم حتى يشهد نفسه فضلا عن غير لأنه لو شاهد نفسه في حال توحيد الحق تعالى أو غيره لكان مثنيا لا موحدا ذاته القديمة يوصف الوحدانية موصوفة ونعت الفردانية منعوتة [1]وصفات المحدثات عن المشاكلة والمماثلة والاتصال والانفصال والمقارنة والمجاورة والمخالطة والحلول والخروج والدخول والتغيير والزوال والتبدل والانتقال من قدس ذاته ونزاهة صفاته مسلوبة ولا ينسب نقصان إلى كمال جماله وكمال جمال أحديته مبررا عن وصمة ملاحظة الأفكار وجلال صمديته معرى عن مزاحمة ملابسة الأذكار، ضاقت عبارات المبارزين في ميدان الفصاحة عن وصف كبريائه وعجز البيان السابقين في حرصة المعرفة عن تعريف ذاته تعالى وتعالى إدراكه من مناوبة الحواس ومحاولة القياس، وليس لأصحاب البصائر في أشعة أنوار عظمته سبيل التعامي والتغاشي إن قلت : أين؟ فالمكان خلقه، وإن قلت: متى؟ فالزمان إجاده، وإن قلت كيف؟ فالمشابهة والكيف مفعوله، وإن قلت : كم ؟ فالمقدار والكمية مجعوله [2]، الأزل والأبد مندرج تحت إحاطته والكون والمكان منظور تحت سباطه كل ما يسع في العقل والفهم والحواس والقياس ذات

[1] أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، تص: الشيخ محمد بخيت، دار النهضة، بيروت، لبنان، ص 41.

[2] الإمام أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، تص: الشيخ محمد بخيت، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، ص 41،42.

الله مقدســـة عنه، إذا كل ذلك محدث والمحدث لا يدرك إلا المحدث دليل وجوده، وبرهان شـــهوده الإدراك في هذا المقام عجز والعجز عن درك الإدراك إدراكا لا يصـــل بكنة الواحد ألا الواحد وكل هذا انتهى إدراك الموحد إليه فهو غاية إدراكه لا غاية الواحد تعالى عن ذلك علو كبير وكل من ادعى أن المعرفة الواحد منحصـــرة في معرفته فهو بالحقيقة ممكور ومغرور لقوله تعالى : وغركم بالله غرورا ." [1]

أنواع التوحيد: يقول الإمام الغزالي اعلم أن إثبات التوحيد خمســـة أشـــياء في أصـــول التوحيد لا بد لكل ما كلف من اعتقادهن:

أحدهما: وجود الباري تعالى لير أبه من التعطيل.

ثانيهما: ووحدانيته لبرأ به من الشرك.

ثالثهما: تنزيهه تعالى عن كونه جوهرا أو عرضـــا، وعن لوازم كل منهما ليبرأ به من التشبيه.[2]

رابعهما: إبداعهما تعالى بقدرته واختياره لكل ما سواه ليبرأ من القول بالعلة والمعلول.

خامســـهما: تدبيره تعالى لجميع مبتدعاته ليبرأ به تدبير الطبائع والكواكب والملائكة وقوله: لا إله إلا الله " يدل على خمسة.

اتفق المســلمون على أن الله تعالى موصـــوف بكل كمال بريء من كل نقصـــان لكنهم اختلفوا في بعض الأوصـــاف فاعتقد بعضـــهم أنها كمال فأثبتها له واعتقد آخرون أنها نقصان فنفوها عنه، ولذلك أمثلة:

أحدهما: قول المعتزلة إن الإنسان خالق لأفعاله لأن الله لو خلقها ثم نسبها إليه ولأنه لو فعلها مع أنه لم يفعلها وعذابه عليها مع أنه لم يوجدها، لكامن ظالما له والظلم نقصـــان،

[1] سورة الحديد، الآية 14.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، 116.

وأهل السنة بقولون: وجدنا كمال الإله في التفرد ونفي القدرة عيب ونقصان وليس تعذيب الرب على ما خلقه بظلم دليل تعذيب البهائم والمجانيين والأطفال لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء لا يسأل عما يفعل. والقول بالتحسين والتقبيح باطل فرأوا أن يكون هو الخالق لأفعال العباد ورأوا تعذيبهم على ما لا يخلقون جائزا من أفعاله غير قبيح.[1]

2/ الأخلاق: كلمة الأخلاق وجدت قبل الغزالي ففي الحديث :" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " والذي يعنيني الآن هو علم الأخلاق كما فهمه الغزالي، فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة، وأخرى يسميه علم صفات القلب، وحينا يسميه أسرار معاملات الدين، وربما سماه أخلاق الأبرار، وهو اسم لبعض مؤلفاته، فعلم الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة، يعرف الغزالي الخلق الحسن بأنه إصلاح القوى الثلاث، قوة التفكير، وقوة الشهوة، قوة الغضب، يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء ويستشهد بالحديث :" حفت الجنة بالمكارة، وحفت النار بالشهوات ."وبالآية قوله تعالى : " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ." [2]عرف الغزالي الخلق في كتابع إحياء علون الدين فقال : "الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى الفكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة والمحمودة عقلا وشرعا، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا .ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح، ولا القدر الجميل أو القبيح، ولا التمييز بين الجميل والقبيح، وإنما هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والذل، ثم قال : فالخلق إذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

[1] الإمام الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، مصدر سابق، ص 44،45.

[2] سورة البقرة، الآية 216.

يرى الغزالي أن من الناس ولد حسن الخلق بفطرته، بحيث لا يحتاج إلى التعليم، ولا إلى الـتأديب كعيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء، ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب، فرب صـبي خلق صـــادق اللهجة ســـخيا جريئا، وأما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الأنبياء لا يحتاجون إلى التعليم والأديب ويكفي أن أذكر أن عصمة الأنبياء ـ في غير تبليغ الرسالة ــ كانت مما اختلف فيه العلماء، وأن القرآن شواهد كثيرة على الغفران ما تقدم وما تأخر للنبي صلى الله عليه وسلم من الذنوب، والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هي التخلق : أي حمل النفس على الأعمال التي يقتضـــيها الخلق المطلوب، فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فعليه أن يتكلف فعل الجود، وهو بذل المال، حتى يصير ذلك طبعا فيه .والغزالي يهتم كثيرا برياضـــة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح .[1]

يرى الغزالي أن من كانت بصـيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرفت العيوب أمكن العلاج .

وإذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم، حتى إن أحدهم ليرى القذى في عين أخيه، ولا يرى الخدع في عين نفسه، فقد وضع الغزالي أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس:

الأول: أن يجلس المرء بين يدي شـــيخ بصـــير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته.

الثاني: أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما ذكره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة نبهه إليه.

[1] زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2012، ص 150.

الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن العين السخط تبدي المساوئ، ولعل انتفاع الإنسان بعد ومشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم نفسه به، فإن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أوعن أعظم منه، أوعن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره.[1]

3/الزهد: فهو عزوف النفس عن الدنيا وانطواؤها عنها طوعا مع القدرة عليها وأصله العلم والنور الذي يشرق القلب حتى ينشرح به الصدر ويتضح به أن الآخرة وأبقى وأن نسبة الدنيا إلى الآخرة أقل من نسبة خزفة إلى جوهرة وثمرته: القناعة من الدنيا بقدر الضرورة وهو قدر زاد الراكب فالأصل نور المعرفة فيثمر حال الانزواء ويظهر الجوارح بالكف إلا عن قدر الضرورة في زاد الطريق والضروري من زاد الطريق مسكن وملبس ومطعم وأثاث. يرى الإمام الغزالي أن الزهد مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم حال عمل كسائر المقامات أما الحال فنفي ما يسمى زهدا هو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن الشيء إلى غيره بمعاوضة وبيعه وغيره قائما عدل عنه لرغبته في غيره فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى، ولهذا الغزالي يرى أنه من رغب عن ما ليس مطلوب في نفسه لا يسمى زهدا وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليس مطنة الرغبة،[2]وهذا يجب أن ترك الكسب والتخلي عن المال ما يؤكد الغزالي أن فقد المال أفضل من وجوده وبتجرده من المال وما يكسبه يصبح العبد فقيرا، فإذن يخصص اسم الزاهد لمن يزهد عن الدنيا ويخرج من قلبه حبها ويدخل حب الطاعات لأن من يحب الله تعالى ولا يحب

[1] زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، مصدر سابق، ص 155.

[2] الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ج 4، مكتبة ومطبعة كرياط فوترا، سماراغ، د ط، د ت، ص 211.

غيره فهو ليس زاهد المطلق لأم من يزهد طمعا في القصـــور والفواكه وغيرها فهو زاهد ولكن ليس مطلقا وأيضا من ترك المال دون الجاه فهولا يستحق اسم زاهد

كما يرى الغزالي أن الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضـــافة إلى نفاســـة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصـــور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون فتوة وسـخاء وحسـن خلق ولكن لا يكون زاهدا، [1]فهذا يدل على أن من ترك منال على سـبيل اسـتمالة القلوب أو طمعا في العوض ليس زهدا، إنما يعد من محاسـن العادات ولا دخل للعبادات غيه لهذه يشـــترط في الزهد أن يكون الابتعاد عن الدنيا لعلن العبد بحقارتها، وأنها فانية والبقاء لله لهذا يجب إخراج الدنيا من القلب وترك حب الله دون ســـواه وبذلك يكون الإنسـان قد تجرد من كل ما يقف بينه وبين ربه. لقد أدى الزهد بالغزالي إلى رفض الرئاســـة والإنابة إلى دار الخلود والتأله والإخلاص وإصـــلاح النفس وغلب عليه الخلوة وترك التدريس، ولبس الثياب الخشنة والتقلل في مطعومه، لأنه رأى كل ما في الدنيا زائد وبينها المال ولهذا يجب إصـــلاح النفس لكي يبعدها عن الوقوع في الخطأ ولذا ربط الغزالي الزهد بالفقر وكانت لـه نظرة للفقر بأنـه ينطبق على جميع الخلق .ويســـتخدم الصـــوفية الزاهد بمعنى الغني عن الناس فيرتبط عندهم بالزهد بالفقر وهوما يحتاج إليه الإنســـان، فلا يســـمى فقرا، فإذن فهو فقد الحاجة لهذا ينطبق على جميع الخلق لأنهم مفتقرين إليه ومحتاجين إلى كماله وجلاله [2]،ومعنى ذلك أن الصـوفية يرون أن كل ما لا يحتاج الإنســـان ليس فقرا لهذا ارتبط بمفهوم الزهد لأن من يزهد فهو ناقص في الدنيا وغني عن الآخرة، والزاهد أيضـــا محتاج إلى الله تعالى لهذا يعد مثل الفقير، وكما بين

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين المصدر نفسه، ص 114.

[2] الشرقاوي حسن، معجم الألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار، القاهرة، ط 1، 1987، ص 168،169.

ذلك الغزالي أن كل فاقد للمال نسميه فقيرا، بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه وله خمسة أحوال ولكل منها اسم :

الحالة الأولى: وهي العليا أن يكون بحيث أتاه المال لكرهه، وهرب منه وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد، الحالة الثانية :أن يكون لا يرغب في الرغبة، أن يفرح لحصوله، ولا يكرهه ويزهد فيه لو أتاه وصاحبه يسمى راضيا، والحالة الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه ولكن لا ينهض لطلبه ويسمى قانعا، الحالة الرابعة: وهي انه راغبا فيه ولوجود سبيل لطلبه وهذا نسميه حريص، أما الحالة الخامسة: أن يكون ما فقده من مضطرا له كالجائع الفاقد للخبز وصاحب هذه الحالة يسمى مضطرا، فهذه الأحوال الخمسة أعلاها الزهد [1]، ويمكن القول أن الصوفية ربط مفهوم الزهد بالفقر وهذا لأنهم يرون أن كلاهما محتاج إلى الله وفي دوام الحاجة له، لأن من شرط الفقر أن يشعر العبد رغم ما يملكه ورغم جاهه أنه بحاجته وبفقره إلى الله، فكان عندهم الفقر أفضل من الغني لأنه قانع وراضي عن الله عز وجل .

3/1مراتب الزهد عند الغزالي :وضع الغزالي الزهد مراتب وهي ثلاثة درجات : الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوته قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى : وهي السفلى منها يزهد في الدنيا ولها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد على خطر فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وعلى الاستراحة بها في قليل أو كثير، الرجة الثانية : درجة من يترك الدنيا طوعا وطمعا

[1] الغزالي أبوحامد، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ص 186,

للحصول على الأخرة أفضل منها، كمن ترك درهما لينال درهمين وهذا أسهل وناقص،[1] وأنه لا ينبثق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه كما فيكاد يكون معجبا بنفسه وزهده وبالظن في نفسه انه ترك شيئا له قدر لما أعظم قدار منه وها أيضا نقصان، وهذا لأنه يكون طعاما في الآخرة من جور وقصور وغيرها في ما وعد به الله عباده .الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد في زهده فلا يرى إذ لا يرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة أخذ جوهرة .

3/2أقسامه:

أما المرغوب فيه فشرط أن يكون خيرا من المرغوب عنه، إلا من غلبت عليه الرغبة فيه والمرغوب فيه متفاوت القدر ويتبين الزاهدون في طلبه فهذا يرغب النجاة من النار وآلامها فيقلع عن كالأسباب المعاصي وهذا زهد الخائفين، وهذه الدرجة السفلى يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر وخطر السراط ما بين يدي العبد من الأهوال وهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم، [2] الدرجة الثانية : أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيم واللذات الموجودة في جنته وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الآلام بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمدا لا آخر له، الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يكون له رغبة إلا في الله تعالى وفي لقائه فلا يلتف قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق

[1] قمير يوحنا، فلاسفة العرب، الغزالي، دار المشرق، بيروت، ط 3، 1999، ص 49.

[2] الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ص 220.

الهم بالله تعالى لأن من طلب غير الله من الشـرك الخفي وهذا زهد المحبين، [1]ويفهم من هذا القول أن زهد المحبين يكون لحبهم في الله دون ســـواه وإخراج الرغبة في الدنيا من القلب فيكون العبد في هذه اللحظة مســـتغرق في عشـــق الله ولا يطلب غير الله ولقاءه وهمه في هذه الدنيا لقاء ربه .

4/ الصلاة: يقول الإمام الغزالي إذا دخلت في لصلاة فإنسي الدنيا وأهلها وأقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، واذكر وقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليه تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف فإنه الملك العظيم .

وقيل لبعضـــــهم كيف تكبر التكبيرة الأولى؟ فقال: ينبغي إذا قلت: الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله التعظيم مع الألف، والهيبة مع اللام والمراقبة والفرق مع الهاء .

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب في مطالعة العظمة، وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم يلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس، وما يتخايل في الباطن وهومن الكون الذي صـار بمنزلة الخلردلة وألقيت فكيف تزاحم الوسوسة مثل العبد، والله تعالى أعلم.

وجعلنا الله وإياكم من عباده المقربين وعلمائه العالمين وأصفيائه المخلصين، وصلى الله على ســـيدنا محمد خاتم النبيين وقائد الغر المحلجين، وعلى آله وصـــحبه المقربين وأزواجه الطيبين الطاهرين وذريته المخلصين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، والمد لله رب العالمين .[2]

[1] أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المصدر نفسه، ص 221.

[2] الغزالي أبو حامد، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 173.

5/**الشـــكر**: يقول الغزالي وكل نفس من أنفاس العبد نعمة لله تتجدد عليه يلزمه القيام لشكرها وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله ويرضى بما أعطاه ولا يخالفه بشيء من نعمته وتمام شكره في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على اصغر جزء من نعمه وأن بلغ وغاية المجهود عليها فيلزمك على كل شكر شكرا إلى ما لا نهاية له، فإذا تولى الله العبد حمل عنه شكره فرضى عنه بسير وحط عنه ما يعلم انه لا يبلغه ويضعفه لقوله تعالى :"مكان عطاء ربك محظورا ."[1]

6/**الأنس بالله تعالى** :يقول الغزالي اعلم أن من أجل مواريث المحبة الأنس أما حقيقة الأنس فهو استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالى وجماله وكماله وقال بعضهم حقيقة القرب فقد حس الأشياء من القلب وهدوء الضمير إلى الله تعالى قلت وهذا هو الوسيلة لنيل القرب لا نفس القرب لأن هذا هو طهور القلب عما سوى الله تعالى وإذا تطهر القلب عما سوى الله تعالى كان حاضرا مع العبد لأنه ليس بين العبد وبين إلا حجاب نفسه وعوارضها، فإذا فنى عنها وعن عوارضها وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى منه وجملة ذلك أن كل ذرة من بدء العالم وبدء الإنسان قد تعلق علم الله تعالى بها كشف وارداته تخصيصا وقدرته إيجادا وإبقاء والصفات لا تفارق الموصوف بل الصفات قائمة بالموصوف فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه وإذا سمع فلا يسمع بنفسه وهكذا ورد في حديث فالعارفون تنشأ أحوالهم عن قرب الله تعالى أما الأبرار فتنشأ أحوالهم بعلم وجود الرب مطلقا مع العلم باقتداره على المنع والعطاء والإسعاد والإشقاء والعارفون يرون ربهم في الدنيا بعين الإيقان والبصائر وفي الأخرى

[1] أبي حامد الغزالي، منهاج العارفين، تح: الحاج فؤاد الدين السيد قوام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1388هـ،1968م، ص19.

أي بالعين فه قريب منهم في الدارين وليس قربه منهم في الأخرى مخالفة لقربه في الدنيا إلا بمزيد اللطف والعطف تقع هنا وهناك قرب المسافة ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة لا في الدنيا ولا في الآخرة البتة وهذه المعرفة المثمرة الأنس بشرط الصفاء والأنس يثمر السكينة فهي صولة تعدل طغيان القلب وتثبتع وتوفقه على حد الاعتدال في آداب الحضرة لأن لذة القرب في الأنس تطهير ألباب العارفين وتوجب لهم الطغيان لأن الإنسان يطغى عند الغنى .[1]

[1] أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، تح، الشيخ محمد بخيت، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، ص 77،78.

الفصل الثاني: تأثيرات فكرة البناء الروحي السليم على المعرفة عند الغزالي

المبحث الأول: شرح النفس والروح الإنساني

المبحث الثاني: غلبة النفس وعداوة الشيطان

المبحث الثالث: كون النفس جوهر

المبحث الأول: شرح النفس والروح الإنسانية

يقول الإمام الغزالي اعلم أ ن الله تعالى خلق الإنسان من شيئين مختلفين : أحدهما الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابي الذي لا يتم أمره إلا بغيره، والآخر : هوالنفس الجوهري المفرد المنير المدرك الفاعل المحرك المتمم للآلات والأجسام والله تعالى ركب الجسد من أجزاء العذاء ورباه بأجزاء الرماد، ومهد قاعدته وسوى أركانه وعين أطرافه وأظهر جوهر نفسه من أمره الواحد الكامل المكمل المفيد، ولا أعني بالنفس القوة الطالبة للغذاء ولا القوة المحركة للشهوة والغضب، [1] ولا القوة الساكنة في القلب المولودة للحياة، والمبرزة للحس والحركة من القلب إلى جميع الأعضاء فإن هذه القوى تسمى روحا حيوانيا، والحس والحركة والشهوة والغضب من جنده، وتلك القوة الطالبة للغذاء الساكنة في الكبد بالتصرف يقال لها روحا طبيعيا والهضم الدافع من صفاتها والقوة المصورة والمولود والنامية وباقي القوى المنطبعة كلها خادمة للجسد والجسد خادم للروح الحيواني لأنه يقبل القوى عنه ويعمل حسب تحريكه وإنما أعني بالنفس ذلك الجوهر الكامل الفردي الذي ليس من شأن إلا بالتذكر والتعفف والتمييز والروية ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد وهذا الجوهر رئيس الأرواح وأمير القوى، الكل يخدمونه ويمتثلون لأمره والنفس الناطقة أعنى هذا الجوهر عند كل قوم اسم خاص، فالحكماء يسمون هذا الجوهر النفس الناطقة والقرآن تسميه النفس المطمئنة والروح الأمري، والمتصوفة تسميه القلب والخلاف في الأسامي والمعنى الواحد لا خلاف فيه، فالقلب والروح عندنا والمطمئنة كلها أسامي

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، طبعة محققة ابراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، ص 241.

النفس الناطقة [1].والنفس الناطقة هي الجوهر والحي الفعال المدرك وحيث ما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعني له هذا الجوهر , والمتصوفة الروح الحيواني نفسيا ,والشرع ولرد بذلك فقال :"أعدي عدوك نفسك. «وأطلق الشارع اسم النفس بل أكدها الإضافة، فقال :" نفسك التي بين جنبيك" وإنما أشار بهذه اللفظة إلى القوة الشهوانية والعصبية فإنهما ينبعثان عن القلب الواثق بين الجنبين فإذا عرفت فرق اللاسامي : فاعلم أن الباحثين يعبرون عن هذا الجوهر النفس لعبارات المختلفة ويرون فيه أراء متفاوتة والمتكلمين المعرفين بعلم الجدل بدون النفس جسما . ويقولون إنه جسم لطيف بإزاء هذا الجسم الكثيف ولا يرون الفرق بين الروح والجسد إلا بالطاقة والكثافة وبعضهم بعد الروح عرضا وبعض الأطباء يميل إلى هذا القول وبعضهم يرى الدم روحا وكلهم قنعوا بقصور نظرهم عن تخيلهم وما طلبوا القسم الثالث ويقول الغزالي اعلم أن الأقسام ثلاثة الجسم والعرض والجوهر الفرد فالروح الحيواني جسم لطيف كأنه سراج مشعل موضوع في زجاجة القلب أعنى ذلك الشكل الصنوبري المعلق في الصدر والحياة ضوء السراج والدم ورهنه ,والحس والحركة نوره والشهوة حرارته والغضب دخانه والقوة الطالبة للغذاء الكائنة في الكبد خادمة وحارسته ووكيله وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات والإنسان هو الجسم وآثاره أعراض وهذا الروح لا يهتدي إلى العلم ولا يعرف طريق المصنوع ولاحق الصانع وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن لو يزيد الدم ينطفئ ذات السراج لزيادة الحرارة ينطفئ بزيادة البرودة وانطفاؤه سبب موت البدن وليس حطاب الباري

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، طبعة محققة ومصححة إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، مصر، القاهرة، ص242.

سبحانه ولا تكليف الشارع بهذا الروح لأن بهائم وسائر الحيوانات الغير مكلفين ولا المخاطبين لأحكام الشرع [1].

والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائدا خاصا به، وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض لأنه من أمر الله تعالى، كما قال تعالى: "قل الروح من أمر ربي ." [2]، وقال أيضا : " يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ".وأمر الباري تعالى ليس بجسم ولا عرض بل القوة إلهية مثل العقل الأول واللوح والقلم وهي الجواهر المفردة المفارقة للمواد بل هي أضواء مجردة معقولة غير محسوسة، والروح والقلب بلساننا من قبل تلك الجواهر و لا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت بل يفارق البدن وينتظر العود إليها في يوم القيامة كما ورد في الشرع وقد صح في العلوم الحكمية بالبراهين جوهر ثابت دائم غير فاسد ونحن نستغني عن تكرير البرهان وتعديد الدلائل لأنها مقررة مذكورة، فمن يتأثر بالبرهان بل نعول على العيان ونعتمد على رؤية الإيمان أضاف الله تعالى الروح إلى أمره وتارة إلى عزته فقال :"ونفخت فيه من روحي." [3]، وقال أيضا: "فنفخنا فيه من روحنا، "والله تعالى اجل من أن يضيف إلى نفسه جسما وعرضا لحسنتهما وتغيرهما وسرعة زوالها وفسادها والشارع صلى الله عليه وسلم، قال: " الأرواح جنود مجندة." وقال : " أرواح الشهداء في حواصل طيور حضر ."والعرض لا يبقى بعد فناء الجوهر لأنه لا يقوم بذاته والجسم يقبل التحليل ، كما قيل : التركيب من المادة والصورة كما هو مذكور في الكتب، فلما وجدنا هذه الآيات والأخبار والبراهين العقلية

[1] أبو حامد الغزالي، كيمياء السعادة، ط 2، مطبعة السعادة، مصر، 1343هـ، ص 27،28.

[2] سورة الإسراء، الآية 85.

[3] سورة الحجر، الآية 29.

علمنا أن الروح جوهر فرد كامل حي بذاته يتولد من صـــلاح الدين وفســـاده والروح الطبيعي والحيواني وجميع القوى البدنية كلها من جنوده وأن هذا الجوهر يقبل صـــور المعلومات وحقائق الموجودات من غير اشـتغال بأعيانها وأشـخاصـها، فإن النفس قادرة على أن تعلم حقيقة الإنسانية من غير أن ترى إنسانا كما أنها علمت الملائكة والشياطين وما احتاجت إلى رؤية أشـــخاصـــها إذا ينالها حواس أكثر الناس، وقال قوم من المتصـــوفة إن للقلب عينا كما للجســد [1]، فيرى الظواهر بالعين الظاهرة، ويرى الحقائق بعين العقل وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم :"ما من عبد إلا ولقلبه عينان ."وهما عينان يدرك بهما الغيب.، فإذا أراد الله تعالى لعبدا خيرا فتح قلبه ليرى ما هو غائب عن بصـــره، وهذا الروح لا يموت بموت البدن لأن الله تعالى يدعوه إلى بابه، وإنما هو يفارق ويعرض عن لبدن فمن أعراض تتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية فيســـكن المتحرك فيقال لذلك السـكون يموت وأهل الطريقة أعني الصـوفية يعتمدون على الروح والقلب أكثر اعتمادا منهم على الشخص وإذا كان الروح من أمر الباري تعالى فيكون في البدن كالغريب ويكون وجهة إلى أصـله ومرجعه , فينال الفوائد من جانب الأصـل أكثر مما ينال من جهة الشخص إذا قوى ولم يدنس بأدناس الطبيعة .[2]

في معاني الألفاظ المترادفة على النفس وهي أربعة: النفس والقلب والروح والعقل

أما النفس: فتطلق بمعنيين:

أحدهما: أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصـــفات المذمومة وهي القوى الحيوانية المضـادة للقوى العقلية، وهو المفهوم عند إطلاق الصـوفية، فيقال: من أفضـل الجهاد أن

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 242..

[2] أبو حامد الغزالي، مصدر سابق، ص، 243.

تجاهد نفسك، وإليه الإشارة بقول نبينا عليه السلام :"أعدي عدوك نفسك التي بين جنبيك ."[1]

الثاني : هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة، قال الله تعالى : " يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ."والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهي من حزب الشيطان، وإذا لم ينم سكونها ولكنها صارت مدافعة عن النفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال الله تعالى : " ولا أقسم بالنفس اللوامة ."إن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء لقوله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو المرآة العزيز :" وما أبرىء نفسي إن النفس أمارة بالسوء ." [2] وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة، لأنها نفس الإنسان أي ذاته والحقيقة العالمة بالله تعالى وسائر المعومات.

أما القلب: ويطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل مودع في الجانب الأيسر ممن الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذا يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية وهذا القلب

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، جزء شرح عجائب القلب، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1457هـ،2005م، ص 878,

[2] سورة يوسف، الآية 52.

موجود للبهائم، بل هو موجود للميت ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر الله، ومن عالم الملك والشـــهادة، إذا تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الادميين .[1]

والثاني : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجســماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العرف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجســماني وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تحلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المســتعمل للألة بالآلة، أو تعلق المتمكن بالمكان، وشــرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين: أحدهما : أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة، والثاني : أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود : أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

أما الروح:

فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصــعد من منبع القلب ويتصــاعد إلى الدماغ بواسطة العروق أيضا إلى جميع البدن، فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده عملا، وهو مركب الحياة، فهذا البخار كالســراج والحياة التي قامت به كالضــوء، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير الســراج أجزاء ببيت، ويطلق ويراد به المبدع الصــادر من أمرر الله تعالى، الذي هو محل العلوم والوحي والإلهام، وهومن جنس

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مصدر سابق، ص 877.

الملائكة، مفارق للعالم الجسماني، قائم بذاته على ما نبين ويطلق أيضا ويراد به الروح الذي في مقابلة جميع الملائكة، وهو المبدع الأول وهو روح القدس، ويطلق أيضا ويراد به القرآن وعلى الجملة فهو عبارة عما به حياة ما على الجملة . [1]

أما العقل:

فيطلق ويراد به العقل الأول، وهو الذي يعبر عنه العقل في قول النبي صلى الله عليه وسلم «أوما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر." أي أقبل حتى تستكمل بي، وأدبر حتى يستكمل بك جميع العالم دونك، وهو الذي قال الله تعالى له: " وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز علي ولا أفضل منك، بك آخذ وبك أعطي. "الحديث هو الذي يعبر عنه بالقلم كما قال عليه السلام: " إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب، فقل: وما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل وأثر ورزق وأجل . فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة."

والإطلاق الثاني أن يطلق ويراد به النفس الإنسانية، الإطلاق الثالث أن يطلق ويراد به صفة النفس، وهو بالنسبة إلى النفس كالبصر بالنسبة إلى العين، وهي بواسطته مستعدة لأدراك المعقولات، كما أن العين بواسطة البصر مستعدة لأدراك المحسوسات، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه عن ربه عز وجل:" وعزتي وجلالي لأكلمنك فيمن أحببت."[2]

إثبات النفس : يقول الغزالي النفس أظهر من أن تحتاج إلى دليل ثبوتها، فإن جميع خطابات الشرع تتوجه لا على المعدوم، بل الموجود على موجود حي يفهم الخطاب،

[1] أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، نشر المؤسسة الهنداوية، د ط، سنة 2019، ص17.

الغزالي أبو حامد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص، 18.

ولكن نحن نستظهر في بيانه، فنقول : من المعلوم الذي لا يرتاب فيه أن الأشياء مهما اشـــتركت في شـــيء، وافترقت في شـــيء آخر، فإن المشـــترك فيه غير المفترق فيه، ونصـــادف كافة الأجســـام مشـــتركة في أنها أجســـام، يمكن أن يفرض فيها أبعاد ثلاثة متقاطعة، رســـم النفوس الثلاثة : فنرســـم النفوس الثلاثة بمراســـمها، فإن شـــرائط الحد الحقيقي متعذر الوجود ها هنا، بل وفي كل الموجودات [1].

فنقول:

أما النفوس النباتية: فهي الكمال الأول لجســـم طبيعي آلي من جهة ما يتغذى وينمو ويولد المثل أما النفوس الحيوانية: فهي الكمال الأول لجســـم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة.

أما النفس الإنســـانية: فهي الكمال الأول لجســـم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار العقلي، والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية.

وقولنا الكمال الأول: أي من غير واســـطة كمال آخر، لأن الكمال قد يكون أولا [2]وقد يكون ثانيا.

وقولنا الجسم الطبيعي، أي غير صناعي، لا في الأذهان بل في الأعيان.

وقولنا آلي، أي ذي آلات يســـتعين بها ذلك الكمال الأول في تحصـــيل الكمالات الثانية والثالثة، ولفظ الكمال الأول من لفظ القوة، لأن القوة تكون بالنســـبة إلى ما يصـــدر عنها من الأفعال، أو بقياس إلى ما تقبله من الصور المحسوسة والمعقولة، وإطلاق لفظ القوة عليهما يكون بالاشتراك الاسم، فيكون الحد مشتملا على لفظ مشترك.

[1] أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 19،20.

معرفة النفس عند الغزالي: قال الغزالي اعلم أن مفتاح معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق." وقال صلى الله عليه وسلم : "ومن عرف نفسه فقد عرف ربه [1]."وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك، فإن قلت إني أعرف نفسي فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجنة ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة وإذا اشتهيت طلبت النكاح وإذا جعت طلبت الأكل وإذا عطشت طلبت الشرب، والدواب تشاركك في هذه الأمور فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت ومن أين جئت إلى هذا المكان ولأي شيء خلقت وبأي شيء مادتك وبأي شيء شقاؤك، وقد جمعت باطنك صفات منها صفات البهائم، ومنها السباع ومنها صفات الملائكة، فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج، وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل فإن منهم فاشتغل باشتغالهم، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الالهية وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب وتعلم أن هذه الصفات لا شيء ركبت فيك فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ولكن خلقها حتى تكون أسرارك وتخرها للسفر الذي قدامك وارجع إلى مكان سعادتك وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف

[1] الغزالي أبو حامد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص، 20.

من نفسك شيئا قليلا، فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور لأن الحق يكون عنه محجوبا .[1]

إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك من شيئين : الأول هذا القلب، والثاني يسمى النفس والروح، والنفس والقلب الذي تعرفه بعين الباطن، وحقيقتك الباطن، لأن الجسم أول والآخر وهو الأول، ويسمى قلبا، وليس القلب من هذه القطعة اللحمية، التي في الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون الدواب والموتى، وكل شيء تبصر، بعين الظاهر فهومن هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة، وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم الغريب وتلك القطيعة اللحمية مركبة وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته والتكليف عليه والخطاب معه، وله الثواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه، ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، ومن ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود .[2]

أما سؤالك ما حقيقة القلب، فلم يجيء في الشريعة أكثر من قول الله تعالى : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ."[3]لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية

[1] أبو حامد الغزالي، كيمياء السعادة، مصدر سابق، ص 5.

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، طبعة محققة ومحققة، إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ص448.

[3] سورة الإسراء، الآية 85.

وهومن عالم الأمر، قال الله عز وجل :" ألا له الخلق والأمر [1]."فالإنســـان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه للمساحة والمقدار والكيفية فهومن عالم الخلق، وليس للقلب مساحة ولا مقدار ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قبل القســـمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلا ومن جانب العلم عالما، وكل شـــيء يكون فيه علم وجهل فهو المجال، وفي معنى آخر هومن عالم الأمر، لأن عالم الأمر عبارة عن شــيء من الأشـياء لا يكون للمســاحة والتقدير طريق إليه، وقد ظن بعضــهم أن الروح قديم فغلطوا، وقال قوم إنه عرض فغلطوا لأن العرض لا يقوم بنفســه ويكون تابعا لغيره، فالروح هو أصـــل ابن آدم، وقالب ابن آدم نبع له، فكيف يكون عرضا ؟وقال قوم إنه جسم فغلطوا، لأن الجسم يقبل القسمة ن فالروح الذي سميناه قبلا وهو محل معرفة الله تعالى ليس بجسم ولا عرض بل هومن جنس الملائكة .

ومعرفة الروح صـــعبة جدا، لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته لأن لا حاجة في الدين إل معرفته، لأن لبدين هو المجاهدة والمعرفة علامة الهداية كما قال ســـبحانه وتعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم ســـبلنا [2]." ومن لم يجتهد حق اجتهاد لم يجز أن يتحدث معه في معرفة حقيقة الروح، وأول أس المجاهدة أن تعرف عســـكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد .

اعلم أن النفس مركب القلب وللقلب عســـاكر، كما قال ســـبحانه وتعالى: " وما يعلم جنود ربك إلا هو[3]."والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبا لسـعادته، وسـعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصـل له من صـنع الله وهومن جملة عالمه، ولا تحصـل له

[1] سورة الأعراف، الآية 154.

[2] سورة العنكبوت، الآية 69.

[3] سورة المدثر، الآية 21.

معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس والحواس من القلب والقالب مركبه ث معرفة صـــيده ومعرفة شـــبكته، [1]والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشـــراب والحرارة والرطوبة وهو ضـــــعيف على خطر من الجوع والعطش في الباطن وعلى خط من الماء والنار في الظاهر وهو مقابل أعداء كثرة .

[1] أبوحامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، المصدر نفسه، ص 450.

المبحث الثاني: غلبة النفس وعداوة الشيطان

يقول الإمام الغزالي ينبغي للعاقل أن يقمع شـــهوة النفس بالجوع قهر لعدو الله قال صـلى الله عليه وسلم:" الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضـيقوا مجاربه بالجوع. "إن أقرب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه وعطشـــه، وأعظم المهلكات لابن آدم شـــهوة البطن فيها أخرج آدم حواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار إذنها هما عن أكل الشـــجرة فغلبتهما شـــهوتهما حتى أكل فبدت لهما ســـوأتهما، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات .

وقال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهوتها محصورا في سـجن هفواتها ومنعت قلبه من الفوائد من سـقى أرض الجوارح بالشـهوات فقد غرس في قلبه شجرة الندامة.

إن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضـــروب خلق الملائكة وركب فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة وخلق البهائم وركب فيها الشهوة، ولم يركب فيها العقل، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشـــهوة، فمن غلبت شـــهوته عقله فالبهائم خير منه ومن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة.[1]

حكى عن بعض أهل المعرفة أنه قال: الجهاد على ثلاثة أصـناف: جهاد مع الكفار وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالى:" يجاهدون في سبيل الله [2]."وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى:" وجادلهم بالتي هي أحســـن [3]."وجهاد مع النفس

[1] أبوحامد الغزالي، مكاشفة القلوب، محقق، أبوعبد الله الرحمان صالح محمد عويضة، ص 15.

[2] سورة المائدة، الآية 54.

[3] سورة النحل، الآية 129,

الأمارة بالسوء كالذي في قوله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا ." أفضل جهاد هو جهاد النفس.

إن الصحابة ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ كانوا اذا رجعوا مع جهاد الكفار يقولون رجعنا من الجهاد الأصـــغر إلى الجهاد الأكبر، وإنما يســـم والجهاد مع الهوى والنفس والشـــيطان أكبر لأن الجهاد معهما أدوم وجهاد الكفار يكون في وقت دون الوقت لأن الغازي يرى العدو ولا يرى الشيطان والجهاد مع عدو يراه أسهل من الجهاد مع عدولا يراه ولأن الشيطان معينا مع نفسك وهو الهوى، وليس الكافر مع نفسك معين، فلذلك كان أد، ولأنك إذا قتلت الكافر تجد النصر والغنيمة وإن قتلك الكافر نجد الشهادة والجنة .ولا تقدر أن تقتل الشـــيطان، وأن قتلك الشـــيطان في عقوبة الرحمان، كما من فر منه في الحرب يقع في أيدي الكفار، ومن فر منه الإيمان يقع في غضـــب الجبار نعوذ بالله منه، ومن وقع في أيدي الكفار لا تقل يده إلى عنقه ولا تقيد رجله ولا يجوع بطنه ولا يعرى بدنه، ومن وقع في غضـــب الجبار يســـود وجهه وتقل يده إلى عنقه بالأغلال وتقيد رجله بقيود النار، ويكون طعامه نارا وشرابه نارا ولباسه نارا .[1]

الرياضة والشهوة النفسانية: أوحى الله إلى موسى عليه السلام، يا موسى إذا أردت أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ومن وسوسة قلبك إلى قلبك ومن روحك إلى بدنك ومن نور بصرك إلى عينك ومن سمعك إلى أذنك فأكثر من الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى :" ولتنظر نفس ما قدمت لغد[2]." يعني ما عملت يوم القيامة، يقول الغزالي اعلم أيها الإنســـان إن النفس أمارة بالســـوء وهي أعدى لك من

[1] أبوحامد الغزالي، مكاشفة القلوب، مصدر سابق، ص 17.

[2] سورة الشورى، الآية، 19.

إبليس وإنما يتقوى عليك الشـــيطان بهوى النفس وشـــهواتها فلا تغرك نفســـك بالأماني والغرور لأن من طبع النفس والأمن والغفلة والراحة والفترة والكســـل فدعواها باطل وكل شـيء منها غرور وإن رضـيت عنها واتبعت أمرها أهلكت والفترة والكسـل من محاسـبتها وإن عجزت عن مخالفتها واتبعت هواها وليس للنفس مرجوع إلى الخير هي رأس البلايا ومعدن الفضيحة وهي خزانة إبليس ومأوى كل شر لا يعرفها إلا خالقها [1]، قال الله تعالى : " واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ." يعني الخير والشر.

فينبغي للعاقل أن يتوب من الذنوب الماضـية ويتفكر فيما يقربه وينجوبه في الدار الآخرة ويقصر الأمل ويجعل التوبة ويذكر الله تعالى، ويترك المعاصـي والمناهي، ويصـبر نفسه ولا يتبع الشـــهوات النفســـانية فالنفس صـــنم، فمن عبد النفس يعد صـــنم ومن عبد الله بالإخلاص فهو الذي قهر نفسه.

حكى أن مالك بن دينار مرض مرضه الذي مات فيه انتهى قدحا من العسل واللبن ليثرد فيه رغيفا حارا فمضـى الخادم وحمله إليه فأخذه مالك بن دينار ونظر فيه سـاعة وقال يا نفس قد صـبرت ثلاثين سـنة وقد بقى عمرك سـاعة، ورمى القدح من يديه وصـبر نفسـه ومات، وهكذا أحوال الأنبياء والأولياء والصادقين والعاشقين والزاهدين.

قال سليمان بن داوود ــ عيه السلام ــ أن القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة وحده وقال علي بن أي طالب ـــ كرم الله وجهه ـــ ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم كلما ضمها جانب انتشرت من جانب آخر، من أمات نفسه بلف في كون الرحمة، ويدفن في أرض الكرامة ومن آمات قلبه يلف في كفن اللعنة ويدفن في أرض العقوبة [2]، حكى عن يحيى

[1] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، مصدر سابق، ص 12.

[2] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، مصدر سابق، ص13.

بن زكريا ـــ عليه السلام ـــ أن إبليس بذا له وعليه معاليق فقال له يحيى ما هذه قال الشـهوات التي أصـيد بها بني آدم قال يحيى : هل تجدني فيها شـيئا، فقال لا إلا إنك شبعت ذات ليلة فثقلناك عن الصلاة، فقال يحيى ـ عليه السلام ـ : لا جرم إني لا أشبع أبدا، فقال إبليس لا جرم إني لا أنصـح أحدا أبدا، فهذا فيمن في عمره إلا ليلة، فكيف لمن لا يجوع في عمره ليلة ثم يطمع في العبادة .

حكى أيضا عن يحيى بن زكريا . عليه السلام . أنه شبع مرة من خبز الشعير فنام تلك الليلـة عن ورده فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى هل وجدت دار خير لك من داري أو وجدت جوار هو خيرا لك من جواري وعزتي وجلالي لو اطلعت على الفردوس واطلعت على جهنم لبكيت الصديد بدل الدموع ولبست الحديد بدل المسوح[1].

المطلب الثالث: كون النفس جوهرا.

يقول الغزالي إن النفس جوهر قائم بنفسه ولا بد من كشف هذه العبارة، فنقول : على جهات فيقول للقوة الغازية نفس وكذلك المنمية وكذلك النباتية، وهذه أنفس وليسـت المراد في هذا الغرض، فأول النفوس النباتية ثم الغازيـة ثم النامية ثم الحيوانية، وهذه أول مراتب خروج فعل النفس من القوة إلى الفعل، فالنفوس الحيوانية هي كمال جسم طبيعي بها يحس ويتحرك، والبهيمة والإنســان يشــتركان في هذه النفس[2]، وهذه النفس، هي حرارة مودعة في النطفة ودم الطمث المجتمع في الرحم لها كالقالب، فإذا أســقط المني على بقية الدم يجتمع في الرحم انتشــر عليه كالنتق في اللبن وعقد بحره فســخن وامتد بالحر من الخارج وتزايدت الحرارة الغريزية، فأول ما يتكون القلب ثم ينتشـر إلى العروق

[1] أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، محقق أبوعبد الله الرحمان صالح محمد محمد عويضة، ص،13.

[2] أبو جامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 64.

والعصب وينتقش ذلك الجزء فيه إلى أن تكتمل أعضاء الجنين، ومن يوم تسقط النطفة في الرحم إلى يوم خروجها مقدار ما تقطع الشمس ثلاثة أرباع الفلك والنطفة تستمد الحر من جهة الأم والأم من الأغذية، فإذا دخلت في الشهر التاسع صارت كالمفتول الخشن المشـــرب بالزيت الصـــافي في شـــدة الملائمة والتأتي للاشـــتغال، وهذا مثل بل الأمر وأغمض وأدق .

فالنفس الحيوانية لباب الغذاء والنباتات والعناصـــر، فإذا بلغت هذه الرتبة اســـتحقت من الجود الإلهي نفســـا، فحينئذ يوجد الرب تعالى قوة امن عالم الأمر كما قال تعالى:" قل الروح من أمر ربي ". وقوله كذلك :" روحنا من أمرنا ."والعالم من محدب الفلك التاســـع في الصـــفحة التي تلى جهة فوق والتي تلى أقدامنا إلينا مملوءة جنودا وملائكة لقوله تعالى : " وما يعلم جنود ربك إلا هو."[1]وقد تبرهن في العلم الطبيعي أنه لا يجوز أن يكون عالم خارج الكرة التاسعة، وأن خلاء البتة وأن كل موجود للباري تعالى فهو داخل جوف هذه الكرة، فأما الأجسام فهي تستحيل عن العناصر الأربعة فكل ما تحت مقعر فلك القمر مستحيل متغير، [2]والعناصر يستحيل بعضها إلى بعض وما عادا ذلك فهو جواهر من حوادث أخر، والنفس من جنس تلك الجواهر لا من العناصـــر فهي روحانية محضة وهي نفس صغيرة موازية لنفس العالم الكبير .

ولقد تكرر منا أن الإنســـان موجود على مضـــاهاة العالم، فالنفس جوهر روحاني لطيف ولا يجب أن ينكر المكر ذلك وهو يشاهد شعاع الشمس وروحانيته وباطنه، حتى أن قرصـــها يكون بالمغرب وشـــعاعها بالمشـــرق فما إلا أ ن تغيب خلف جبل فينقطع

[1] سورة المدثر، الآية 31,

[2] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص 64،65,

الشعاع الذي بالمشرق بلا زمان، ولوكان جسما لما انقطع ذلك آحاد السنين، وكذلك إذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس ذلك غلى حيث شئت، ثم نقطعه عن موضع عكسته إليه لا في زمان ولا جوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف فليس في العالم موضع بيت ولا زاوية إلا وهي معمورة بنا لا يعلمه إلا الله تعالى، ولظلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالستر في الخلوة وهو أن يجامع الرجل امرأته عريانين، وقد قال تعالى :"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد [1]." فالأرواح مشحون بها العالم، وإنما نبهنا على ذلك تنبيها أن للنفس شبه عنصر تكون منه ما يناسب لطاقتها، فإذا أتت الروح الحيوانية أوجد الله تعالى نفسا جوهرا لطيفا روحانيا عالما للقوة في طبائعه أن يعلم الأمور ويقل بارئه، فيتشبث بهذا الجسم ويشتغل به وينشأ معه حتى لا يعرف سواه ويشتد ألفه وحرصه عليه من الله تعالى فيحرك الأجسام وذلك كمثل الحديد فإنه يكون جمادا لا يتحرك فإذا انضاف إليه أمر يقوي طبيعته وخاصيته قوي الأثر فيه، ويأتي المحل لفعل النفس الكلية فحركت الحديد فجرى ودار وتراه كالحي فلا يزال على تلك الحال حتى ينخرم ذلك الفطام وتزول تلك الملائكة ، فلا تزال تلك النفس مع ذلك الجسم وتمدها الملائكة من الخارج بنطق أنه لا يعرفه إلا العلماء، وقد أخبر الشارع عليه السلام، أن الخير من الملائكة والشر من الشيطان فلا بد من أثر يحصل على الملائكة .

فلما كانت النفس الروحانية قبلت على الروحي تأثرت عنه، فلولا العقول المعبر عنها بالملائكة الممددة في النفوس من الخارج لما علقت معقولا البتة فإن النفس عالمة بالقوة فقط والملائكة نحرج ما في القوة إلى الفعل حتى يصيرها عالمة بالفعل فأعلى

[1] سورة ق، الآية، 18.

طبقة في الاستمداد من الأنبياء ثم من يليهم وذلك بحسب تهذيب النفس والعكوف عن هذه الجنبة وهذا هو معنى قوله تعالى: " إذا أيدتك بروح القدس [1]." وقال تعالى في الأولياء:" أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه [2]." الناس في الأخذ من الملك تفاوتا لا نهاية له ومن الناس من لا يأخذ شيئا وهم المرادون بقوله تعالى: " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا [3]." وإنما أوجد الله سبحانه وتعالى النفس لامتحان الادمي، ولو أوجدها مبرأة من المادة لم يكن منها عصيان فجعلها في المادة كما قال تعالى: " لننظر كيف تعلمون." وذلك أن الملائكة عرفت أن الوجود في المادة يعصى فقالوا:" أتجعل فيها من يفسد فيها ة يسفك الدماء." فالنفس تكتسب في بدنها الكمال لكي تلحق بالملائكة أو الشياطين إما بالأعلى أو بالأخص، ثم هي من بعد ذلك حية لأن كونها موجودة في البدن لا يدل على عدمها بعدم البدن فإن عنصريهما مختلفان، والدليل على ذلك أن نفوس الملائكة وذوات الأفلاك لا تتغير إلا أن يريد بارئها والأفلاك تقبله بجواهرها، ولأن الفناء هو انحلال التركيب والنفس البسيطة لا مركبة والدلي عليه علمها بالأمور العقلية والمغيبة كالنبوة والكهانة.

ولا يصح البتة أن يعقل الجسم بإتفاق العلماء والعقلاء والمزاج عبارة عن اعتدال الأخلاط في الجسم والأخلاط جسم يستحيل أن تكون مدركة عاقلة، وإنما العاقل المدرك جوهر يناسب جوهر الملائكة وكل جنس فلا يلائم إلا جنسه، ولما كان الجسم كثيفا صرف في الخدمة والحركات والأمور الجسمانية ولما كانت النفس لطيفة أعدت للإرادات والقدر والعلوم حالة في النفس والعلم لا ينقسم فمحله لا ينقسم ولأن الجسم لو

[1] سورة المائدة، الآية 11.

[2] سورة المجادلة، الآية 22.

[3] سورة الفرقان، الآية 44.

كانت حركته منه للزم ي الفلك أن تكون حركته منه تبرهن أن حركته من نفس محركة وكل متحرك فلا يكون محركا لنفسه أصلا ويبطل أن يحركه جسم آخر . [1]

[1] أبو حامد الغزالي، مجموعة رسائل الغزالي، ص66.

الفصل الثالث: الغزالي والتصوف

المبحث الأول: الغزالي والتصوف

المبحث الثاني: تصوف الغزالي وآثره على فلسفته

المبحث الثالث: التجربة الصوفية وعلاقتها بالفلسفة عند الغزالي

الفصل الثالث: الغزالي والتصوف.

الإمام أبو حامد الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرد كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه فقد سلك الغزالي طريق الزهد والانقطاع عن الناس تاركا جميع ما كان عليه في بغداد بعد شهرة وصيت، [1] ولقد اتخذ هذا الفيلسوف طريقا خاصا في التفكير ومعرفته صوب الحقيقة، حيث كان في بحث الغزالي عن حقيقة المنطلقات : أحدهما ديني وهو الحديث الذي روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل مولود يولد بالفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه، بالإضافة إلى البيئة الصوفية التي نشأ فيها، والثاني عقلي وهو كثرة المذاهب وتعددها ويحدد الغزالي اليقين الذي يبحث عنه ما هو انكشاف المعلوم لا يبق معه ريب، ولا يقارنه عن كل الغلط والوهم بحيث لو تصدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لو يورث ذلك شكا وإنكارا[2]، ونتاج هذا أن البحث عن اليقين ومصدر الحقيقة يستوجب الوقوع في بعض المتاهات التي تكون محل النقد والقبول وهذا، وهذا ما استدع الإمام الغزالي في محاولة الكشف عن بعض الأمور التي تقود به نحو السير إلى الطريق المراد الوصول إليه هذا ما جعله في حيرة من أمره .

لقد كانت رحلة الغزالي إلى المعرفة إلى التصوف والخلوة والرياضة والمجاهدة لتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لله تعالى، يقول الغزالي: «وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفس الشام حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على

---

[1] الغزالي أبو حامد، منهج العابدين إلى جنة رب العالمين، تح: محمود مصطفى علاوي، مؤسسة رسالة، بيروت، ط 1، 1989، ص 7.

[2] باسل فيكتور سعيد، منهج البحث عن المعرفة عند الغزالي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، د ت، ص 31،32.

العزم في المقام، بالشـــام فتلطفت بلطائف الحبل في الخروج من بغداد على العزم آلا أعود ها أبدا."[1]

لقد اتخذ الغزالي طريقة خاصـــة في التفكير الفلســفي، وهوما يوحي بالتجديد والابتكار لديه وهذا ما نلاحظه عند ذهابه إلى الشام حيث وجد الزهاد والمتصوفة والهدوء والسكن وحياة الرقي ويقول الغزالي في ذلك: وأقمت فيها تقريبا ســـنتين لا شـــغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضـــة والمجاهدة، انشـغالات بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصـفية القلب بذكر الله تعالى كما حصلته من علم الصوفية.[2] وبهذا كان الغزالي يتقرب نحو الصواب في محاولة تزكية نفسه فقد طرأت أفكاره بعض الشكوك فحاول أن يجد لها حلول.

فبدأ الغزالي قراءة كتب الفلســفة حوالي ســنة 474 هـ، قبل الميلاد وهو في الرابعة وثلاثين من عمره فأحذ يتغير مجراه وحدثت له أزمة روحية كان من نتائجها أن الشـــك في اعتقاده الموروثة، وهذا الشك من فائدته حتى قال : "أن لمن لم يشك لم ينظر، ولم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمر والحيرة والضلال ولا خلاص للإنسان إلا في الاســـتقلال ."[3] هذه الرؤية في مخيلة الغزالي أحدثت له ثغرة من ثغرات التطور والتجديد نحو ما أبرزه من تغيير فقد أعطر لمسة مغايرة عما كان عليه فالأمور التي شك فيها الغزالي وهي آراء الفلاسـفة وطريقة المتكلمين والصـوفية ومعتقدات أهل الباطن فقد رآهم يعتمدون على الحواس والعقل فهما الشـاهدان العدلان عندهم ولكن الغزالي رأى أن

[1] الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، مركز الأهرام، بالقاهرة، ط 1، 1988، ص 23.

[2] أبو حامد الغزالي، مشـكاة الأنوار ومصـفاة الأسـرار، تح: عبد القادر العريز عز الدين السـيروان، بيروت، ط 1، 1986، ص 19.

[3] سـحاني جعفر، مدخل إلى العلم والفلسـفة والإلهيات نظرية المعرف، دار الإسـلامية، بيروت، ط 1، 1990, ص 103.

أحد الشـاهدين يكذب صـاحبه فالعين ترى الكوكب بمقدار الدينار والعقل ويراه أكبر من الأرض وإذا كذبت الحواس فالأحرى أن يكذب العقل وعليه فلا يمكن الاعتماد على واحد منها ويصدق قول السفسطائين من أنه لا يوجد دليل على الشيء يركن إليه.

إن هذه النظرة عند الغزالي أعطت له نقائص في المعرفة فقد شـهد بعض الانزلاقات التي كانت تحجب عنه الوصول إلى فهم بعض الأمور وهذا يعود حسب ما وقع فيه من غموض، لذلك نجد يرد أسباب الشك إلى ثلاث أمور التي حاول الغزالي استخلاصها، تعدد الأديان والمذاهب والتقليد، الذي يجعل صبيان النصارى ينشئون على التنصر، وصبيان اليهود على التهود، وصبيان المسلمين على الإسلام، فكيف يكون التقليد سبيل الحق، فكيف يركن إليه العاقل ؟وكذلك تعطش فطري إلى درك حقائق الأمور كان يدفع الغزالي إلى التهجم على كل مشكلة واستكشاف أسرار كل مذهب ليميز محقا من مبطل، لا أغادر باطنيا ولا أحب أن أطلع على باطنيا ولا ظاهرا إلا وأن أعلم حاصل ظاهريا، ولا فلسفيا إلا أقصد الوصول على كنة فلسفته ولا متكلما إلا أن أجتهد في إطلاع غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا أحرص على العثور على ستر صفوته ولا متعبدا إلا أن أرصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتحبس وراءه بالتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .[1]

إن هذا المسلك الذي سلكه الغزالي جعله يدرك حقيقة الحقائق وطريق الحق، فقد تزول بعض الشكوك بعدما توصل إليها عن طريق المعرفة والكشف. وخرج الغزالي من ظلام الشك إلى نور اليقين وفي ضوء هذا اليقين الإلهي الوهبي قوم الإمام معارفه وثقافته من جديد فحصر أصناف الطالبين للحقيقة في أربعة فرق هم: المتكلمون

[1] قمير يوحنا، فلاسفة العرب، الغزالي، دار المشرق، بيروت، ط 3، 1999، ص 20.

والباطنية والفلاسفة والصوفية ومع هذه الطائفة الأخيرة الطائفة الصوفية وجد حقيقته.[1] فنتاج هذا أن أبو حامد الغزالي يحاول إدراك الأشياء ومعرفة مصدرها، فقد واكبه طريق مظلم سد عليه طريق النور .

هكذا مر الغزالي بأزمات نفسية وعقلية ودينية عنيفة وقد ذكر هذا الشك في المنقذ الضلال حيث قال: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور، دأبي وديني من أول أمر ورعان عمري عزيزة وفطرة من الله وضعا في جبلتي لاختباري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبأ."[2] إن هذه الحقيقة جعلت من الغزالي يدرك حقائق الأمور ويتضح له المعرفة بالرغم من تلك المعتقدات والمرجعيات التي كانت تعيقه فما كان إلا أن يخرج من ذلك الظلام متجه نحو نورانية الحق الرباني.

لقد درس الغزالي الفلسفة، وقد حاول الاطلاع على منتهى علومها وهذا في أقل من سنتين ثم فكر فيها قريب من سنة يعاودها ويرددها حتى يتبين ما فيها من خداع وتلبيس ولهذا درس الغزالي الفلسفة، وتعمق وانتقد فما وجد؟ جعل الغزالي الفلاسفة أصناف ثلاث: دهريين وطبيعين وإلهين.[3]

فالدهريون هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر للعالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجود كذلك بنفس وهؤلاء هم الزنادقة، والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم في

---

[1] أبويزيد محمد الجار، الولايات المحمدية في مناقب أعلام الصوفية، دار الغريب، القاهرة، ط 1، 1998، ص 388,

[2] فاحوري حنا، الجر خليل، تاريخ الفلسفة العربية، ج 2، دار الجبل، بيروت، ط 3، 1993، ص 412.

[3] فرحات يوسف، الفلسفة الإسلامية وأعلامها، تراد كسيم، شركة مساهمة سويسرية، جنيف، ط 1، 1986، ص 127.

عـالم الطبيعـة وعن عجـائـب الحيوان والنبـات إلا أ ن هؤلاء ظنوا أن القوة العـاقلـة في الإنســـان تابعة لمزاجه وأنها تنعدم بإنعدام مزاجه فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار هؤلاء أيضـا الزنادقة، فأما الإلهيون هم المتأخرون منهم سقراط وأفلاطون أرسطو وطاليس، ثم رد أرسطو وليس على سقراط وأفلاطون ومن كان قبلهم من الإلهين إلا أنه اسـتقى من رذائل كفرهم بقايا لم يقف للنزوع منها، فوجب تفكيره وتفكير متابعيه من الفلاسفة الإسلاميين ك إ بن سينا، وفرابي وأمثالهم.

بهذا استقى أبو حامد الغزالي نتاج معرفته من خلال ما اتضـح له من الاتجاهات الثلاثة سابقة الذكر، حيث بهذا مهد لنفسه طريقا آخر فتح له اكتشاف أشياء أخرى.

يذهب الغزالي إلى أن الله قد أنشـأ طائفة من المتكلمين بعد أن تضـاربت النحل وتعدد الملل، كثرت البدع المحدثة التي وضـــعت الإيمان في النفس وجاءت بها عن ســـواء الســـبيل فتنهض المتكلمون للســـنة وتحركت دواعيهم، ودافعوا عن العقيدة يســـتخرون مناقضـات الخصـوم ويسفهون حجج المبدعين، [1] فالمتكلمين هم يدعون أنهم أحل الرأي والنظر وهذا بحكم كونـه أراد أن يثبت دلائل معرفته في معتقداتهم وأفكارهم في محـاولـة منهم بزرع أفكارهم على حســـب الاخرين فقد انتهجوا الحكمة والرأي في المعرفة بحكم أنهم أهل الصـواب والموعظة، لذلك حصـر طالبي الحق في أربعة أصـناف، المتكلمين والباطنية الفلاسـفة الصـوفية، ونقد المتكلمون والباطنية من الشـيعة والفلاسـفة في المنقذ من الضـــلال ونقدهم أيضـــا في إحياء علوم الدين، وانتهى إلى أن الصـــوفية هم أرباب

[1] فرحات يوسف، الفلسفة الإسلامية وأعلامها، ترادكسيم، شركة مساهمة سويسرية، ط 1، 1986، ص 127 .

الحق المبين أن حاصـــل علمهم، قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقه المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تحلية القلب من خير الله تعالى وتحليته بذكر الله.[1]

كان التصـــوف طريقا من طرق العبادة، يتزاول الأحكام الشـــرعية من ناحية معانيها الروحية وآثارها في القلوب فهو بقابل علم الفقه الذي يتناول ظاهر تلك العبادات ورســـومها ثم انتقل التصـــوف فأصـــبح طريق للمعرفة، بقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين.[2]، وهذا المفهوم قد اتخذ أبعاد كثيرة وحمل في داخله مفاهيم ومقامات شـــتى سالكين هذا الاتجاه من الصوفيين.

ويعتبر الغزالي أكبر مدافع الإســـلام عن التصـــوف القائم على العقيدة أهل الســـنة والجماعة وعلى الزهد والتقشـــف وتربية النفس وإصـــلاحها، ويتفق الغزالي في هذا مع صـــوفية الاتجاه الأول في القرنيين الثالث والرابع حيث كان الغزالي إبان هذه الفترة من حياته قد حصـــل على الكثير من العلوم وتمعن فيها ومن بين هذه الفلســـفة ولعله أقبل على دراسته لكي يزيل ما بدأ يساوره من شكوك إبان تدريسه ولكنه لم يتوصل من تلك العلوم على اختلافها إلا ما فيه راحة نفسه واستبد به القلق النفسي إلى حد أدنى به إلى أزمة عنيفة.[3]

ولهذا كان إقبال الغزالي نحو الحقيقة الكشف قد أتاح عبئ الاضطرابات التي حملها على عاتقه والتي كانت تزرع فيه الكآبة النفسية، وكانت هذه المرحلة من حياته الروحية

---

[1] أبوزيد محمد علي، تاريخ الفكر الفلســفي في الإســلام، المقدمة العامة، الفرق الإســلامية وعلم الكلام والفلســفة الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، د ط، 2000ً، 155.

[2] ماسـينيون ومصـطفى عبد الرزاق، التصـوف، تر: دائرة المعارف الإسـلامية، إبراهيم رشـيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1984، ص 73.

[3] زقزوق محمود حمدي، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، د ت، ص 54.

بمثابة الاستعداد النفسي لسلوك طريق التصوف وهي مرحلة تتركب من عدة حالات وجدانية كشك والكشف المحجوب وإحساسات أخرى غامضة تنتهي كلها بالاتجاه إلى الله حيث كان الاتجاه إلى الله هو الداء الشافي لازمة الغزالي .[1]ولكي تتساءل عن بداية الخلفية الصوفية عند الإمام الغزالي، وهذا التساؤل يقرض علينا التعرف على شيوخه لأنه لا شك أنه التقى بالكثير من الصوفية .

كيف تصوف الغزالي؟ تعددت العوامل التي دفعت بالإمام الغزالي إلى التصوف حيث تربى الغزالي على يد شيخين جليلين من أقطاب التصوف هما السيد أبوعلي الفارمدي والسيد يوسف النساج فقد كان حجة الإسلام في بداية أمره مذكر الأحوال الصالحين ومقامات العارفين، وفي هذا يقول الغزالي : " صحبت شيخي يوسف النساج بطوس فلم يزل يسقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات . فرأيت الله في المنام فقال: يا أبا حامد، فقلت: أن الشيطان يكلمني، قال: لا بل أنا كلمني الله المحيط بجهاتك الست ثم قال: يا أبا حامد:" در مساطرك وأصحب أقواما جعلتهم في أرض محل نظري وهم الذين باعوا الدارين بحب، فقلت: بعزتك ألا أذقتني برد حسن الظن بهم، فقال: قد فعلت والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فأخرج منها محتارا قبل أن تخرج صاغرا فقد أفضت عليك أنوار من جوار قدسي ." [2] وبهذا يتضح كيف استلقى الغزالي من أئمته ومشايخه ذلك الطريق النوراني الذي سلكه بإيمانه الصحيح ومعرفته اليقينية ، وبدأ الغزالي يقرأ لآبي طالب المكي والحارث المحاسي والجنيد والشبلي والبسطامي وغيرهم وعندئذ، بدأ الصراع من نفسه فهو المرموق العالم الذي يشار إليه بالبنان ويحضر حلقته

[1] زقزوق محمود حمدي، المرجع نفسه، ص 55.

[2] أبو زيد محمد جودة، بحار الولايات المحمدية في مناقب أعلام الصوفية، دار الغريب، القاهرة، ط 1، 1998، ص 391.

العليا ة الأكابر ويجالس الملوك والوزراء، فتردد بين شـــهوات الدنيا ودواعي الآخرة وانتصر سلوك العارفين الزاهدين في نفسه التي تمحضت من أعظم عمل بعدا أن أفاض الله عليه بنور الهي ونفحة سماوية [1]،وبهذا يكون حجة الإسلام نصرا للإسلام والصوفية وهو مضـروب بالمثل العليا لدى كبار الصـوفية، وعلما بحقيقة مقامه عند السـادة أهل الحق فقد خاض عباب البحث والمناظرة واســتوعب محصـــلات مفكرية وأنتجها في شخصيته العلمية والفكرية على منواله وطريقته في التفكير .

لما فرغ الغزالي من هذه العلوم وأقيل على الطريق الصـــوفية وافق إقباله عليها هذا النزاع العميق الذي ثار في نفســه يوم كان يدرس في بغداد بين شــهوات الدنيا وتجاذبه ومناد الإيمان ينادي بالرحيل مازال فدائه حتى وطن النفس على مغادرة بغداد فدخل الشام يطلب العزلة والمجاهدة، يعتكف في منارة المسجد طوال النهار، ثم شار إلى بين المقدس والحجاز ودام على ذلك عشر سنين حتى انكشف له حقيقة التصوف على الوجه الحقيقي، فالفرق بين من يعرف حقيقة الزهد وشــروطه وأســبابه ومن كانت حاله حال الزهد لا يمكن الوصـول إليها بالتعلم بل الذوق والحال وتبدل الصـفات، [2] لقد خاض في الغزالي البهجة والسـرور والسـعادة في القلب لا مثيل لها، أحدثت نورا إيمانيا وانكشـفت له سبل طريق الهداية .

وأقبل الغزالي على التصـوف وفي نفسـه إيمان اليقين بالله تعالى وبالنبوة واليوم الآخر إذا يقول :فاعلم أن الصـوفية يسلكون طريق الله وسيرتهم لحسن السير وأخلاقهم أزكى الأخلاق فطريقهم ســبيل إلى التطهر القلب واســتغراقه بفكر الله، فالغناء بالكلية في الله

[1] الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، مركز الأهرام، القاهرة، ط 1، 1988، ص 38.

[2] فرحات يوسـف، الموسـوعة الفلسـفية الإسـلامية وأعلامها، تراد كسـيم، شـركة مسـاهمة سـويسـرية، جنيف، ط 1، 1986، ص 130.

للمتصوفة في أحوالهم مكاشفات ومشاهدات يرتقون بها فيشاهدون الملائكة في يقظتهم وأرواح الأنبياء وهذه الحال يغدر التعبير عنها، وليس للذي بلغها إلا أن يقول، ما كان مما ليست أذكره قطب خير ولا تسأل على الخير .[1] وبهذا فإن تصوف الغزالي قريب من الاعتدال آمن بالله واليوم الآخر وكفى نفسه عن الهوى وأعرض عن الجاه والمال، وهرب من الشواغل والعلائق وأقبل بهمته على الله تعالى فقد تصوفه مبنيا على عمل وعلم، فالعلم حصله من مطالعة كتب التصوف أما العمل فقد حصله بالذوق والحال وتبدل الصفات، يقول الغزالي: إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وسيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على الأسرار الشرع مع العلماء لا يغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به [2]،وبهذا تبين الغزالي نور الحق وقد اعترف بأهل الصوفية وآرائهم فاقتدى بذلك النور الذي أخرجه من الظلمات . يصف الغزالي الطريق التي يسلكها المورید بغاية الترقي الخلقي بالمجاهدة للنفس وإحلال الأخلاق المحمودة محل المذمومة وذلك بالرياضة الصوفية التي يقوم بها السالك في البداية على الشيخ لأن سبيل الشيطان كثيرة ولا بد للشيخ أن يراعي الفروق الفردية ويعرف أخلاقهم وأمراضهم كي يتم تطييب قلوبهم كما فيها يلائمه من التكاليف والرياضات ويشير الغزالي على المورید بالتزام الخلوة والصمت والجوع والسهر فالخلوة ضرورية لتفريغ القلب من الشواغل

[1] المرجع نفسه، ص 131.

[2] الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، تح: محمود بيجو، دار التقوى، سوريا، دمشق، د ت، ص 17.

الدنيوية التي تشكل أكبر العقبات على الطريق في نهاية هذا الطريق يصل السالك إلى المعرفة الصوفية .

معرفة الله وتتميز هذه عن غيرها بأنها أداتها ليست الحواس ولا العقل بل القلب الذي لم يكن في معرفة تلك المعرفة، إنما الطيف السربائية الروحانية.[1]

وبهذا كان نتاج رأي الغزالي للتصـــوف هو التخلي عن المحرمات والموبقات والتحلي بأحسن الصفات والتجلي في معرفة الله معرفة تحيط بذاته وصفاته فالمتصوف يسير باستمرار إلى اللازماني أو الأزلي الذي يشعر أنه نبيل إلى أقصى حد ويتجاوز تماما العالم المؤقت، عالم التدفق والعبث والإحباط والأحزان وهو جلب معه الإســـلام الذي يتجاوز كل فهم ويمكن له أن يخبر ذلك كله ويشـــعر به دون أي معتقدات على الإطلاق.[2]

[1] أحمد علي، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، د ط، 1997، ص 126.

[2] ولتر ستيس، التصوف والفلسفة، ت، إمام عبد الفتاح، إمام مكتبة مدبولي، القاهرة، د ط، د ت، ص 410.

المبحث الثاني: تصوف الغزالي وآثره على فلسفته

مقومات التصوف عند الغزالي:

تصـوف الغزالي تصـوف سـني متعبد آمن بالله والنبوة وباليوم الآخر وكف نفسـه عن الهوى وأقبل بكل همته على الله تعالى لذلك كان التصـــوف عنده مبني على علم وعمل أما العلم فقد حصـله من مطالعة كتب المتصـوفين وأما العمل فقد حصـله بالذوق والمال وتبدل الصـفات وهو يقول في ذلك: "كان العلم أيسـر عليا من العمل، وكم من الفرق أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تعرف حد السكر والفكر وبين أن تكون سكران فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشـروطه وأسبابه وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا." وربما كان تصوف الغزالي أقل حرارة من تصوف كبار المتصـوفين لكن ما نجده في كتاب الإحياء من وصف لحالات التوبة والدرع والزهد والفقر والتوكل والرضـــا والمحبة يدل على أنه الغزالي ذاق حقيقة التصـــوف والتميز عن غيرها بالجمع بين علم المعاملة وعلم المكاشـــفة لذلك نجده ينتقد الجهال الذين تناســـوا العقيدة الدينية واغتروا بالســـطح والترهات وانتهى بهم طول التفكر إلى دعاء الكرامات والقول بوحدة الوجود [1].

أولا، الإلهـام : تختلف المعرفـة الإلهـاميـة بطبيعـة الحـال من غيرهـا من أنواع المعارف الأخرى حيث أن هذه تمثل عملا كسـيبا يحصـل عليه المرء عن طريق الدرس والتعلم والإلهام كما يعرفه الغزالي "هو تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنســـانية على قدر صفاتها وقبولها وقوة استعدادها "والعلم الديني هو العلم الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري وإنما هو كالضـوء من سـراج الغيب يقع على قلب صـاف فارغ

[1] جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص 384.

لطيف ويقول :" إن العلم الذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا "والرياضة الصوفية تؤدي إلى هذا العلم المباشر أوالإلهام ولابد من التجربة المباشرة أوما يسمى بالذوق في المعرفة الصوفية، فإذا لم توفر للمرء هذه التجربة الخاصة لجأ إلى إنكار إمكان المعرفة الإلهامية ويعبر الغزالي عن ذلك بقوله : " وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشيء ينكر ذلك الشيء وذاق المدعي ما ذاق شراب الحقيقة وما أطلع على العلم اللدني، فكيف يقر بذلك ؟ ولا أرض بإقرار تقليدا أو تخمين ما لم يعرف."[1]

ويشير الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين وميزان العمل إلى أهل التصوف يميلون إلى العلوم الإلهامية ولا يميلون إلى العلوم التعليمية ومن أجل ذلك لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها وتحصيل ما صنفه المصنفون في البحث عن حقائق الأمور وقالوا الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له حقائق وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية مع الإرادة الصادقة والتعطش التام بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة [2].

قال الغزالي و"القلب" مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنها الحواس والاعتبار والمشاهدات حتى يمتلأ علما ويمكن أن سد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى

[1] أ، د، منصور عفيف، العلاقة بين فلسفة الغزالي وتصوفه، مجلة الإحياء، جامعة قسنطينة، ص 331.

[2] محمود زقزوق، المنهج الفلسفي، دار القلم، الكويت، ص 189، 193.

عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله فأعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة. [1]

ثانيا: دور العقل في المعرفة الإلهامية .

يشير الغزالي إلى أن العقل دورا هاما يتمثل في وظيفتين أساسيتين:

الوظيفة الأولى :هي أنه عن طريق العقل يمكنه استيفاء الشروط الأساسية الثلاثة للحصول على المعرفة الصوفية وفي ذلك يقول : "اعلم أن العلم اللدني يكون بعد التسوية .(والنفس وما سواها)وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه أحدهما تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر منها والثاني الرياضة الصادقة والثالث التفكر بأن النفس إذا تعلمت ارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوب الألباب وتنفتح رزونه من عالم الغيب في قلبه فيصيرا عالما كاملا عاقلا ملهما مؤيدا ويتضح من هذا الرأي أن الغزالي يميل إلى النظار وذوي الاعتبار في التأكيد على أهمية تحصيل العلوم وقد كان هو نفسه مثالا، لذلك لا تقتصر مهمة العقل على استيفاء هذه الشروط الثلاثة فقط وإنما بعد ذلك تبدأ الوظيفة الثالثة .[2]

الوظيفة الثانية :تتمثل في الحكم النقدي على التجارب الصوفية وتقويمها تقويما صحيحا، وهذه الوظيفة لها أهمية بالغة وذلك لأن حالات السكر عند المتصوفة تعود بسهولة إلى أقوال ذاتية قاصرة وهذا ما يسجله الغزالي في قوله وكلام الصوفية يكون أبدا قاصرا فإن عاد كل واحد منهم يخبر عن حال نفسه فقط، وفي ذلك يقول الغزالي :

[1] أ، د، منصور عفيف، مرجع سابق، 332.

[2] أ،د كتور، منصور عفيف، العلاقة بين فلسفة الغزالي وتصوفه، مجلة الإحياء، جامعة قسنطينة، ص 334،335.

فإن قلت كلمات التصوف تنبئ عن مشاهدات انفتحت لهم في طور الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية وما ذكرتموه تصـــرف ببضـــاعة العقل فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضـي العقل باستحالته، ويضيف في ذلك قوله :إن من الممكن يكشف للولي عن شيء لا يستطيع إدراكه ولكن ليس من الممكن إطلاقا أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاســـتحالة وبذلك يفرق الغزالي فيما يتعلق بوظيفة العقل بالنســـبة للمعرفة الصـــوفية بين عدم اســتطاعة الإدراك وبين ما يعده العقل ويوضـــح ذلك فيقول :نعم يجوز أن يظهر فيما يقصـــر العقل عنه، بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل بمثاله، أنه يجوز أن يكاشـف الولي بأنه فلانا سـيموت غدا ولا يدرك ببضـاعة العقل بل يقصـر العقل عنه ومن ذلك يتضح أن المعرفة الإلهامية لا تخرج عن نطاق العقل . [1]

[1] محمود زقزوق، المنهج الفلسفي، ص 194،196.

المبحث الثالث: التجربة الصوفية وعلاقتها بالفلسفة عند الغزالي .

لعل ما يراد ما كتبه الغزالي للصوفي يعينا الفكرة الأساسية في القرب (معرفة الله) التي نحن بصددها أولا فالغزالي يقول: "آداب الصوفي في قلة الإشارة وترك السطح في العبارة والتمسك بعلم الشريعة ودوام الكد واستعمال الجد والإستحاش من الناس وترك الشهوة وإظهار التحمل واستشعار التوكل اختيار الفقر ودوام الذكر وكتمان المحبة وحسن العشرة في الصحبة والغض عن المرادان وترك مؤاخاة النسوان ودوام درس القرآن"، هذا الأدب الرفيع لا يأتي للصوفي إلا بعد مجاهدة عنيفة في مرحلتين :

العبادة ظاهرها وباطنها، المجاهدة ومحاسبة النفس [1]

ويفسر الغزالي المجاهدة بأنها تقوم على أساس معرفة النفس كوسيلة مؤدية إلى معرفة الله فبعد أن يكتشف للمرء زمانه يقصره على الانشغال بأمور الدنيا لا بد له من الالتزام، العزلة، التفرد بذكر الله هنا يستطيع أن يهتدي لمثل أعلى في هذه المجاهدة وبحقيقة لا مفر منها إن من عرف نفسه فقد عرف ربه، أولى درجات هذه المعرفة الزهد الحقيقي الذي هو غير مقدور للعبد إلا بعد أن ينغمس في زهد بسيط سابق ليظهر الباعث لعزيمة الصوفي في عقيدته وهذا الرابط هو درجة من الصفاء، تتحق ببدء ترك المرء إرادته بقلبه، يقول الغزالي في نص له :"أول الحجب بين العبد وربه نفسه فأنه أمر رباني عظيم وهو نور من أنوار الله وقال :" أنا الحق " فخلاصة التجربة الصوفية التي ينتظر الغزالي من الصوفي العارف المؤمن في أوجع إيمانه أن تأتيها تعتمد على أربعة خطوط : العلم، العمل، الإخلاص، الخوف.

[1] أ دكتور منصور عفيف، المرجع السابق، ص 335،337 .

فالنفس يقدر ما تحتاج للعلم والعمل مع ضـــبط توازنها بالإخلاص لا بد لها من إصـلاح مسـتمر بالتخويف فعندئذ تكتمل صـورة الذروة بذكر الله كما يتحقق العلم اللدني في القلب بعد اطراح المادية وشوائبه الحياتية لتأتي مرحلة الصفاء في عبادة باطنية يتم فيها التجلي بالذوبان من خلال حبل المعرفة بين العارف والله ونلك هي الغاية العظمى.[1]

أثر الغزالي في التصـوف: إن منهج الغزالي الصـوفي الذي مزج فيه العبادة بالعقيدة والشريعة بالحقيقة واستقي طريق التصوف من القرآن والسنة وعمل السلف الصالح ابتعد الشطحات التي صدرت من بعض المتصوفة.

هذا المنهج العظيم الذي أحدث انقلابا كبيرا التصـــوف وترك فيه أثارا شـــتي لا يزال صـداها يتردد في السـاحات الفكرية الإسـلامية لقد صـبغ الغزالي التصـوف بالصـبغة الإســلامية الحقة وترك عليه بصــمات واضــحة لن تمح وآثارها تباع الأيام وتواصــل الأجيال، فبعد أن كان التصـوف موضـع تهكم وازدراء وبعد أن كان الصـوفية موضـع هجوم ونقد وافتراء إذا يتصـوف الغزالي يعيده إلى مكانة مرقومة وقبول حسـن من جموع المسـلمين الذين تنسـموا روائح الجنة وهي تهب عليهم من هذا الطريق الملتزم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول (ماكدونالد)بحق: كانت الصـوفية موجودة في الإسـلام قبل الغزالي إلا أنها كان ينظر إليها كأنها شـــيء مخالف للدرع مزر بمقام من يتبعه ولكن الغزالي لما ظهر في ميدان الحياة عزز الصوفية في تعاليمهم إما تعزز وطبقها علي الشرع وطبعه الشرع وزاد

[1] عبد الأمير الأعم، الفيلسوف الغزالي، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1981، ص 117،124.

تكريمها حتى صارت الصوفية ذات المكانة العليا بين عموم السنيين المسلمين بل بين جميع الفرق الإسلامية منذ ذلك الحين.[1]

ويقول الدكتور شوقي عن أثر حجة الإسلام في مجال التصوف وكيف أنه طبقه على نفسه نظريا وعلميا تطبيقيا دقيقا وكان المثال الرائع للمنهج الصوفي حيث مزج العقائد بالعبادات ومزج أصول الشريعة بالتصوف وقدم للناس الطريق الصوفي عبادات ميسرة عليها من النور مغلفة بعبق من رائحة الفردوس الأعلى.

لقد استطاع حجة الإسلام أن يثبت أن التصوف الأصيل ليس تصومعا وانعزالا الناس وانقطاعا عن ركب وغنما هو انطلاقة وفلسفة روحية إنسانية هادفة تقوم على أساس مراقبة الله تعالى في كل شيء ومحاسبة النفس على كل شيء ومجاهدتها في كل حال لتصف ومن شوائب وتخلص من العلائق ومن ثم يسعد الإنسان في ذاته ويحظى بمحبة الله ورضاه.[2]

وهكذا استطاع الإمام الغزالي أن يرغب الناس في التصوف فبين لهم أن التصوف هو الطريق الموصل إلى معرفة الحق جل جلاله وأن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأودع في جنايا النفس تعاليم الإسلام الخالدة المعطرة بعطر فواح وكائن هبات من الجنة ونفحات من الفردوس الأعلى فأضفي على الفكر الإسلامي بصفة عامة خاصة وعلى الفكر الإنساني بصفة عامة هالة من نور الصفاء والمحبة والرضا والاطمئنان.

[1] عبد الباقي سرور، من أعلام التصوف الإسلامي الغزالي، ص 128.

[2] د، أحمد الشاعر، مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي، ص 320.

ولقد استمع الناس إلى كلام الغزالي وكأنه لحن سماوي يهبط من الملأ الأعلى فيستقر في آذانهم وأسماعهم ويملأ قلوبهم وعقولهم سمو وسعادة وبهجة.

خصائص تصوف الغزالي:

أولا: حمل الغزالي راية بالتصوف السنية وسار بها قدما انطلاقا من المنابع الصافية للفكر الإسلامي من القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستطاع أن يحقق نجاحا باهرا.

ثانيا: اتجه الغزالي بالتصوف وجهة تنسجم مع قيم الدين الخلقية وأهدافه العلمية والعملية فأصبح الصوف طريقا من طرق أهل السنة والجماعة. [1]

ثالثا: استطاع حجة الإسلام أن يجعل التصوف نظرة ذوقية في المعرفة وطريقة روحية تؤدي إلى السعادة وهو ويسميها الباحثون نظرية المعرفة ونظرية السعادة ـــ التي تحدثنا عنها سابقا . ولذلك كان يقول:" من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف."[2]

رابعا: تميز تصوف الغزالي تصوف غيره بأنه تصوف مستنير بجاهد في طلب المعرفة ويهدف إلى طلب الحقيقة ومن ثمة فهو يقحم كل واد من أدوية المعرفة التي يرضـــاها والمعرفة التي يبتكرها والمعرفة التي قد يسلم ولكنه ومع ذلك لا يأخذ بها.[3]

خامسا: جمع الإمام الغزالي على تراث الصوفية ممن سبقوه وقام بشرحه فجعله كأنه موسوعة للتصوف منذ أن بدأت تباشره تخطو خطواتها الأولى على الساحة الفكرية فأقبل الناس عليها يرتشفون من رحيقها ويفترقون من علومها فيتجدد الأمل في نفوسهم ويملأ

---

[1] علي سامي النشار، نشأة التفكير الفلسفي، ج 2، ص 19.

[2] حسن الشافعي، فصول في التصوف، دار الفتوح، ط 1، 118.

[3] زكريا بشير، لمحات من تاريخ الفلسفة، ص 208.

الرجاء قلوبهم فيحدون الســـير إلى طريق المعرفة الربانية لينالوا عند ربهم ملا عين رأت ولا أذن سمعت ولا يخطر على قلب بشر .

ركائز التصوف عند الغزالي :لقد اختار الغزالي طريق الصوفية ـــ كما تعلم ـــفقد رأي بنظرته الثاقبة أن التصـوف هوبر الأمان الذي وصـل إليه، هو الواحة التي شـعر تحت ظلالها بجلال الإيمان وحلاوة اليقين هو النبع الصـافي الذي ارتوت منه روحه، ولقد بدأ التصـوف الإسـلامي في نشأته الأولى بسيطا بدأ من الزهد عندما شاد السادة الصـوفية للناس وهم يتسـارعون بل يتنافسـون في التكالب على شـهوات الحياة والسـعي وراء الدنيا والبحث عن زخرفها وزينتها بل والارتماء في أحضـانها رأى الصـوفية هذا الإقبال اللاهث وراء المال والصـــولجان فأثروا ترك هذه الحياة بلهوها ولعبها وإغراءاتها والانحياز إلى ســـاحة الزهد وذلك لأنه إحدى ركائز الحياة الروحية في الإســـلام وهو المرحلة الأولى التي انطلق منها الصـوفية في سـبيل تشـييد المنهج الصـوفي العظيم ولقد كان هذا الزهد عند المســـلمين الأوائل اعتزالا صـــادقا واتجاها إلى الله خالصـــا ولم تكن فكرة الامتياز الروحي قد دخلته بعد .[1]

إن الزهد عنصر هام من عناصر التصوف وهو غير التصوف فمن الجائز أن الرجل الزاهد لكنه متصوف ولكن لا يمكن أن يوجد المتصوف غير زاهد [2]ومن ثمة يظهر الزهد كضرورة من الضروريات التي لا غني عنها المتصوف.

بل أن ابن خلدون في مقدمته يقول : "إن الزهد هو الناحية العملية للتصـــوف هو العبادة والانقطاع لله وهجر الدنيا وشـهواتها أما الناحية الإشـراقية فهي الغاية وهي هدف

[1] كامل الشيب، الصلة بين التصوف والشبع، ج 4، بغداد، 1964، ص 98,

[2] كامل محمود، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية، بيروت، 1990، ص 205.

الصوفي من زهده ورياضته ومجاهدته [1] ولذا فإن التصوف ـ كما قلنا ـ بدأ بسيطا، فمن المسلمين من كان يصوم نهاره ويقوم ليله ويجاهد نفسه كما كان يقول الرعيل الأول من المسلمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لقد كان عصر الغزالي يدفع من الناس إلى ساحة الزهد فقد ساد في هذا العصر الترف وما تبع هذا الترف من مجون وفساد ومن ثم فقد كان التصوف نوعا من محاربة هذا المجون ومحاولة للقضاء على الفساد وذلك بالعزوف عن الدنيا وما فيها من متاع زائل، كما شهد هذا العصر الصراع الكبير بين المدارس الفكرية المختلفة ولقد لجأ الغزالي إلى طريق الزهد والعبادة ولم تتطلع نفسه إلى منصب أوجاه ولم يحاول التقرب من أمير أو سلطان بل اتجه إلى طريق السادة والصوفية كي ينعم فيه بنفحات الخلد وهي تهب من الفردوس الأعلى .

إن طريقهم هو المنقذ من في هذه الحياة حيث تتجاذب الإنسان الأطماع والشهوات وحب الدنيا والجري وراء متاعها والتكالب عليها مع أنها لا تدوم لأحد ومع أن لقاء الله هو الحق، فلا مناص لمن يريد أن يلقى الله جل جلاله بقلب مطمئن إلا أن يلجأ إلى هذه الطريق، طريق التطهر طريق الصفاء والبقاء، طريق التصوف ولقد سلك حجة الإسلام هذا الطريق بعد مجاهدات كثيرة وبعد معاناة كثيرة فليس من السهل على الإنسان أن يترك الحياة والمال والشهرة ليسلك هذا الطريق [2]

هناك ركائز عدة تضافرت في تكوين التصوف عند الإمام الغزالي ولعل من أهمها ما يلي:

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ت، د، عبد الواحد وافي، ط 1، نشر لجنة البيان العربي بالقاهرة 1278هـ، ص 468.

[2] مأمون غريب حجة الإسلام الإمام الغزالي، ص 41.

أولا : البيئة التي نشأ فيها الإمام : ولا شك أن للبيئة اثر واضح لا ينكره إلا جاحد ولقد أجمع علماء الاجتماع وأساتذة التربية على أن الإنسان وليد بيئته ونتاج مجتمعه فهو كالمرآة المصقولة التي تنعكس عليها صور الأشياء، وقد ولد الغزالي في بيئة متدينة وفي بيت صوفي يشهد المجالس الصوفية وهم يؤدون العبادة لله عز وجل في إخلاص ويشهد ترانيم ذكرهم وتهب عله نسمات تسبيحاتهم ويري إقبالهم على الله بهمة عالية ونية خالصة وقلب سليم يرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا قرأ القرآن الكريم سالت دموعهم عند ذكر الجنة شوقا إليها وحرصا عليها كما تسيل عيونهم إذا ذكرت نيران الجحيم خوفا منها إن أرجلهم لبطيئة عن المعاصي السريعة في طاعة الله وعبادته وهكذا كانت البداية الحقيقية لغرس بذرة التصوف في نفس الإمام حجة الإسلام وقد جاءت من أثر البيئة المحيطة به بما فيها من حلقات الذكر والوعظ واللجوء إلى رحاب الله طمعا في جنته وخوفا من ناره .

ثانيا :قام على تربية الغزالي رجل صوف عميق التصوف والتدين كان صديقا لولده وكان صادقا لوعده فعندما حضرت وفاة والد الغزالي أوصى هذا الصديق الصوفي أن يقوم بتربية الغزالي وأخيه ولقد صدق الرجل وعده حث شمل بعناية الأخوين وسلك بهما طريق التصوف، ولا شك أن هذا الرجل غرس كثيرا مما يعرفه في منهج السادة الصفي في قلب الغزالي في وقت مبكر من حياته حيث تتطبع الأشياء بقوة في نفوس هؤلاء الذين يقبلون على الله ويتجهون في طريق التقوى والعمل الصالح، ولقد واستمر الرجل في تعهد الاخرين بالرعاية حتى نفذ المال الذي تركه لهما الأب عند ذلك ذهب بهما إلى إلى مدرسة ضمانا للرزق وتكسبا للعلم .[1]

[1] طبقات الشافعية، ج 4، ص 102.

ولذلك أن حجة الإســـلام كثيرا ما كان يقول: (طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله).[1]

ولا شك أن السنوات التي قضاها حجة الإسلام عند ذلك الرجل وفي بما وعد وحقق في الوقت نفســه فريســة والد الغزالي الذي دعا الله تعالى أن يمن على الغزالي بالعلم الذي حرم منه.

نقول لا شك أن الغزالي وضع قدمه على أول طريق الحياة الروحية ووضع أمامه طريق الصــوفية وشــاهد معالم منهج الصــوفية وكان ذلك بفضــل الأثر العظيم الذي تركه هذا الصــديق الصــوفي ومن قبله تلك البيئة التي هيأها والده عندما كانت تترد فيها لمحات وضاءة من ذكر الصوفية وفكرهم.

ثالثا: وفعل الأثر العظيم الذي تركه أســتاذه في مجال التصــوف كان أثرا عظيما حيث تلقى الغزالي دروســه في التصــوف، تلك الدروس الفكرية العميقة التي توضــح بعمق وجلاء طريق التصوف وتجسد معالمه والتي كان يتلقاها من أستاذه الصوفي آنذاك وهو أبي علي الفاضــل الفارمدي الصــوصــي الإمام الزاهد الذي لقن الغزالي منهج التصــوف على أسس سليمة صادقة .

رابعا : إن الركائز المهمة التي أثرت تأثيرا واضــــحا وقويا وعميقا في تصــــوف حجة الإســلام مطابقة لما تركه أعلام الصــوفية ممن كتابات توضــح معالم النهج الصــوفي وتحدد طريقه ليصــل إلى طريق النبي صــلى الله عليه وســلم وإلى تعاليم القرآن الكريم والمسيرة الصالحة للسلف ومن سلك طريقهم في هذا المجال ولذا فإن الغزالي قد اقتدى بهم وسار على طريقتهم واتبع نهجهم واتخذ الزهد منطلقا إلى التصوف الذي وقف عليه

[1] الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، د ط، دار الكتاب العلمية، بيروت، ص 9.

حياته ومسيرة عمره يقول المستشرق، جولد تسيمر : "إن أصل تصوف الغزالي كان زهدا بل إنه قوة نظر في حماسته وإعجاب إلى الحياة القلبية الصادقة المفعمة بالإيمان التي كان يحياها المسلمون في عصور الإسلام الأولى ." [1]

وهكذا كان تصوف الغزالي الذي يمثل قمة الإيمان وعمق اليقين الذي يتسم به المتصوفة الذين يعرفون الله جل جلاله حق المعرفة عن طريق الحدس والإلهام وأن طريق المفتوح أمامهم لشاهدوا بأنوار قلوبهم الحقيقة الكاملة.

الفلسفة والتصوف في فكر الغزالي: هناك اعتبارات هامة ينبغي على المرء مراعاتها إذا أراد أن يفهم تصوف الغزالي فهما سليما وتتمثل هذه الاعتبارات في النقاط التالية:

ــ ينبغي أن يأخذه تطوره العقلي في الاعتبار وأن يراعي أنه قد تعمق تعمقا فائقا في كل علوم عصره كما سبق ذلك.

أنه كان باستمرار عالما منتجا ولم يتوقف عن العطاء العلمي بعد أخذه بمنهج الحياة الصوفية.

أنه كان صاحب عقلية فلسفية لم يتخل عنها يوم من الأيام والجمع بين التجريد الصوفي والعقلية الفلسفية جعل الغزالي يتفوق على الفيلسوف الذي لا يتصوف عنده وعلى المتصوف الذي لا فلسفة لديه.[2]

إن المعرفة الصوفية تتطلب من العارف ضرورة تامة من الحسيات والتجرد للمعقولات والتجرد الصوفي يؤدي في نظر الغزالي إلى زيادة التعمق الفكري بهدف الحصول على المعارف الصافية المجردة من مخالطة الحس يروي أبوبكر محمد بن عبد

[1] فريد وجدي، العقيدة والشريعة في الإسلام، ج 7، عام 1924، ص 68.

[2] أ.د. منصور عفيف، العلاقة بين فلسفة أبي حامد الغزالي وتصوفه، ، مجلة دار الإحياء، جامعة قسنطينة، ص339،338.

الله بن العربي عن الغزالي عندما قابله عام 490 هـ، وتحدث معه بعد عامين من تحوله إلى التصـوف "إن القلب إذا تطهر عن علاقة المحسـوس وتجرد المعقول انكشـفت له الحقائق وهذه الأمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها بالكون معهم والصـــحبة لهم ويرشد عليه طريق من النظر وهو أن القلب جوهر صـقيل مستعد لتجلي المعلومات فيه عند مقابلتها عريا عن الحجب كالمرآة في ترائي المحسـوسـات عند نزول الحجب الغزالي قد أصـبح انشـغاله بالتصـوف متصـوفا رافضـا للعقل الذي سـما وارتفع به قبل ذلك وأنه استسلم لتجارب الصوفية غير معقولة فالعقل قد ظل بالنسبة له ملكة الإنسان ووسيلته إلى معرفة الحقيقة هذه الملكة التي حصـــلت على شـــرعيتها الكاملة عن طريق مبدئ الفلســـفي كما يرى الغزالي أن مهمة العقل هي أن تعود إلى معرفة وجود الله ومعرفة وحيه ويرفض الرأي الخاطئ الذي يذهب إلى أن العقل هو مجرد المنطق والجدل ويبين أن رفض العقل من جانب بعض المتصوفة يقوم على هذا الرأي الباطل فإذا وضع هؤلاء الرافضـون للعقل مكان العقل المرفوض مدح الدين والشـرع فعن الغزالي يسـألهم: ماهو الطريق الذي يوصـــل إلى الاعتراف بالذين ؟وكيف تعرف حقيقة الذين فإذا أجيب بأن الحقيقة الدين تعرف عن طريق العقل الذي حكم بغدانته وذمه فهل الدين في هذه الحالة يعد مرفوضا أيضا مثله في ذلك مثل العقل ؟ وإذا أجيب بأن الدين لا يعرف عن طريق العقل بل يعرف بنور الإيمان وعين اليقين وهو هذا النور أي هو الملكة التي يميز بها الإنسان لمعرفة الحقيقة .[1]

[1] عبد الأمير الأعم، الفيلسوف الغزالي، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1981، ص 202،200.

أثر تصوف الغزالي في الفكر الإنساني:

مما لا ريب فيه أن تاريخ البشـــرية تعقب مســـتمر لأفكار إنســـانية متعددة تختلف باختلاف الزمان والمكان ولم تخب أنوار المعرفة على مر الأيام وتتابع الحضـــارات فإذا خفتت هذه الأنوار في موقع فسرعان ما تلألأت هذه الأنوار في موقع آخر ومن البديهي أن يشارك الإنسان في بناء صرح المعرفة الإنسانية كل فكر هادف بناء نابع من ضمير الأمة ومن وجدانها الخفاق ومن أفئدة رجالها الأفذاذ.

ولقد كان تأثير تصوف الغزالي من القوة والعمق ما تجاوز البيئة الإسلامية إلى نطاق الإنساني العالمي حيث قد تجمعت كتب عباقرة الإسلام وعلى رأسهم كتب حجة الإسلام الغزالي ألي عدة اللغات قد عبرت إلى أوروبا من خلال عدة محاور المحور الأول: الحروب **الصليبية:** فقد كانت هذه الحروب إبان فترة حساسة من تاريخ أوروبا هي فترة الصحوة مما دفع رجالهم إلى نهب المكتبات والكتب والزخائر العلمية الإسلامية ثم نقلها إلى أوروبا والإفادة منها[1].

المحور الثاني: الأندلس: لقد شهت الأندلس نهضة علمية وهنية وفلسفية حيث كانت المنارة للحضـــارة الإســـلامية والنبراس الذي تشـــع منه أنوار المعارف والثمة التي تمثل الحركة الفكرية المتجددة في العالم الإسلامي حيث احتضت المعارف بعد أن اتجه إليها نخبة من أشـهر العلماء في الفكر الإســلامي ومن ثمة فقد اتجه إليها الكثير من الغرب كي ينهلوا من جامعاتها وحضارتها المتقدمة. [2]

[1] محمد رشاد، قطرات من الفلسفة الحديثة، ط 1، 1999، ص 60..

[2] محمد رشاد، مصدر سابق، ص 65.

المحور الثالث: حركة الترجمة التي قام بها بعض النبلاء واستطاعوا ترجمة كثيرة هائلة من علوم المسلمين ومنها علوم الإمام الغزالي .

وقد تأثرت أوروبا بالفكر الإسلامي عامة وبفكر الغزالي خاصة وقد بينا سابقا تأثير الإمام الغزالي العميق في فلسفة دينية، ديكارت الفيلسوف الفرنسي الشهير الذي تأثر بصورة أو بأخرى بشك الغزالي.

لقد كانت كتابات الغزالي ثروة عظيمة لها آفاقها ولها أعماقها ولها أبعادها وكانت هذه الثروة نبع أصيل لرواد العلوم وعشاق المعارف وكان لها الفضل الأول في تحطيم الفلسفات المادية التي هبت على الإنسانية، وكان للتصوف الفضل الأول في انتشار الإسلام ونقله عن طريق الصوفية إلى بلاد شتى لم يصل إليها كتائب التحرير الإسلامية فرجال التصوف الذين تربوا على فكر الإمام الغزالي واتبعوا منهجه الصوفي هم الذين حببوا الإسلام إلى القلوب بسيرتهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة وعشرتهم الطيبة وحياتهم البسيطة التي تمثل روح الإسلام في يسره وسهولته .

إن تصوف الغزالي وكتبه القيمة ولا سيما كتابة إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال والاقتصاد في الاعتقاد وغيرهم لموسوعة معارف كاملة فيها العلوم وفيها الظنون وفيها الأخلاق وفيها الفقه وفيها الحكمة، إليها يعود العلام فيغترف من بحرها وإليه يرجع الأديب فيرشف من رحيقها [1]ورحم الله محمد بن يحيى، الذي استمع إلى حديث القوم فإذا به يهتف :إن كلامهم لقريب العهد من الله وإن له لصولة ليست بصولة مبطل وكأن الحسن البصري قد عناهم عندما قال :إن الله عز وجل عبادا قلوبهم محزونة

[1] محمد رشاد دهمش، محاضرات في التصوف الإسلامي، ص 56.

وشـرورهم مأمونة وجوارحهم خفيفة وأنفسـهم عفيفة تسـيل أدمعهم على حدودهم يأجرون إلى ربهم.[1]

نقد الغزالي للتصوف :

لقد حدد الإمام الغزالي ما ينبغي للصـــوفي أن يفعله ويبين له الطريق وأخبر الناس بأن التصـوف علم وعمل ومدارسـة ومنهج أن أول واجبات الصـوفي قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.[2]

ولقد طبق حجة الإسـلام على نفسـه هذا المنهج الذي رسـمه للمتصـوفين فابتعد عن الدنيا أو عبارة أدق ابتعد عن يريقها وزينتها وصـولجانها .... فقد كان يشـارك الناس في حياتهم إلى أن توغل في علم التصـــوف بعد جهاد رائع وصـــراع داخلي عنيف كما قلنا ذلك سابقا ومن ثم فقد أخذ الغزالي يتوجه إلى هؤلاء المنحرفين إلى أفكارهم وفي يده هذا المنهج الذي رسـمه كأول وجهات لمن يسـلك الطريق إلى مالك الملك والملكوت جل لها وبين ضعها وكشف عن عوارها ثم ينطلق في عملية الإصلاح من أجل عودة التصوف جلاله ولذا فإن حبه للتصـوف وشـغفه وله والسـير في طريقه لم يمنعه من نقد الأفكار المنحرفة إنه يفتارق فحقوق الصـــوفية المعتدلة وأفكارهم الحقة أما هذه الأفكار التي خرجت عن الجادة فقد تصـدي إلى أصـول الدين فروعه وفق الفقه الشـريعة وقد آثمرت جهوده الصـادقة لتصـبح مؤلفاته في تاريخ الحركات الإصـلاحية في المجتمع الإسـلامي ذات شأن عظيم وأهمية بالغة لا يمكن تجاهلها بأي حال من الأحوال .[3]

---

[1] طه عبد الباقي سرور، أعلام التصوف الإسلامي، ج 2، ص 76.

[2] الغزالي أبو حامد، المنقذ من الضلال، ص 141.

[3] جولد تسهير، العقيدة والشريعة، ص 180.

ولقد كان الإمام الغزالي بعد تصوفه في جدله الحاكم مع الصوفية غلا خصما قويا عنيدا كحاله من الفقهاء وأهل الكلام والفلسفة الباطنية من قبل فقد رفض حجة الإسلام التصوف المتطرف جملة وتفصيلا وأعلن غضبه عليه وسخطه على الذين جاءوا به وقام بنقد الأفكار الصوفية التي تتنافى من الإسلام والتي تتناقض مع هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وهاجمها قائلا : " وفرقة منهم ـــ الصوفية ـــ عدلوا على المنهج الواضح الواجب في الوعظ وهم وعاظ الزمان كافة إلا من عصمة الله والندور في بعض أطراف البلاد وإن كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والفعل طالما للاغراب، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم الإسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق وغرضهم فاسدة فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . [1]

ويواصل الغزالي هجومه على المنحرفين من الصوفية فيقول: فليس للعارف أن يزعم عن إدراك الذات الإلهية فضلا عن أن يزعم الإتحاد بها أو حلولها فيه وإذا كانت المشاهدة أسمى مرتبة من الاستدلال فإنها ليست كاشفا تاما ليزول معه كل حجاب وإذا وجدنا متصوف يدعي الحق . يريد الحلاج . وجب تأويل قوله.

أما علي أنه يعترف بأنه لا وجود له إلا بالحق وهذا التأويل من بعيدا لأن اللفظ لا يبنى به وإن كل شيء سوي الحق فهو بالحق وأما علي أن أصاحب الذوق يغفل عن ذاته فيكون همه الحق وحده وهو الذي يمكن الالتجاء إليه لفهم شطحات بعض الصوفية

[1] زكريا بشير، الفلسفة القرآنية النورانية عند الغزالي، بيروت، 1975، ص 85.

لأنه من يستغرقه شيء فينسيه كل شيء سواء يجوز له لا على سبيل الحقيقة أن يقول أنه هو، [1] أي أنه أصبح والشيء الذي يستغرقه شيئا واحدا .

إن الإمام الغزالي لا يوافق الحلاج فيما يذهب إليه في نظرية الحلول ويقول إنها من شطحات الصوفية ويحاول في الوقت نفسه أن يبرر هذا القول ويوضح أن الحلاج في بعض اســـتغراقاته ربما لجأ إلى المجاز وليس الحقيقة، إنه وهم وخيال وذلك لأن المتصوفة الخلص من المسلمين الصادقين لم يذهبوا في التعبير عن استغراقهم التام في الحق إلى حد القول بالحلول والإتحاد والذين يزعمون أن ما يقولونه هو الحقيقة فالباطل هو مجرد اســـتغراقات أو نوع من القرب قد أخطأ في التعبير عنه كما ذكر في كتابه المنقذ من الضـــلال حيث يقول ديكارت : يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الإتحاد وطائفة الاتصال وكل ذلك خطأ[2].

فالله عز وجل يتجلى ظاهرا من جهة أفعاله ولكنه يظل باطنا لشــدة ظهوره وعندئذ لا يظهر إلا للعقل لا للحواس وذا فهم الذوق على ها الأساس لم يكن هناك ما يدعوا العقل لإنكاره.

ومن هنا على هذا الأساس العقلي وحده يستطيع المتصوف أن ينسب كل شيء إلى الله وإلى الأسباب التي يسخرها والتي تؤدي إلى نتائجها إلا بسبب القدرة الإلهية وبهذا المعنى يجوز للمتصوف أن يقول أنه يغيب عن ذاته أي عن نفسه فلا يرى عندئذ سوى الحق الذي يصـــرفه في كل أمر من أموره وعلى ذلك ينبغي كما ذكر الإمام الغزالي أن يفسر قول أبي يزيد البساط حي ـ أحد الصوفية الأوائل حيث قال : "انسلخت من نفسي

[1] الإمام أبو حامد الغزالي، كيمياء السعادة، طبع بيروت، 1970، ص 88.

[2] الأمام الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 145.

كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هوبأن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها لا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى . "[1]

ويواصل الإمام حجة الإسلام توضيح قول أبي يزيد البساطحي، فيقول: فإذا لم يحل في القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به فيصير كأنه في هولا أنه هو تحقيق وفرق بين قولنا كأنه هووبين قولنا هو، وهذه زلة قدم فمن ليس له قدم راسخة فما المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر إلى الكمال ذاته وقد تزيد بما تلألا فيه من جلية الحق فيظن أنه هو فيقول أنا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا في عيسى عليه السلام [2].

الغزالي في مرآة الغير:

ابن رشد :

إن خصومة ابن رشد للغزالي تكاد فلسفية، فقد وضع الغزالي كتابا سماه" تهافت الفلاسفة" والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه، فعارضه ابن رشد بكتابه سماه " تهافت التهافت " والذي يهمني من معارضة ابن رشد للغزالي إنما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابي، فقد كان الغزالي يراهما كفارا .ويتلخص دفاع ابن رشد في مسألة قدم العالم وحدوثه التي كانت مثار الخلاف عندما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الاشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد أن يكون راجعا لاختلاف في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء أن مجازفة لماء التوحيد في الحكم بحدوث العالم، وفي وصف الله بصفات معينة محدودة، وفي تعيين مصير العالم بشكل خاص، كل أولئك يدل على

[1] محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف، ط 5،1972هـ، ص 61.

[2] تعليق الشيخ أحمد قبلني، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، بيروت، ص 132.

أن هؤلاء الناس كانوا في غاية السذاجة، أن نظرهم كان بعيد وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ، كما دخل من قبلهم ألوف من أصحاب الشرائع والقوانين .[1]

ابن تيمية :

يعد ابن تيمية من خصوم الغزالي لأنه كتب فصولا كثيرة في تناقضه وتسفيه بعض آرائه، ومن أعجب ما رأيت له حكمه بأن الغزالي هجر طريق الصوفية في أخريات أيامه وفي ذلك يقول:" ولهذا تبين له في آخر عمره أن كريق الصوفية لا يحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله، وكان كارها ما وقع في كتبه من نحو هذه الأمور ومما أنكره الناس عليه، وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى من يفضل الولي على النبي كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبي، فإنا نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبي على الفيلسوف ويسمي طريقه طريق العقلاء، ويذم الفارابي لأنه يفضل الفيلسوف على النبي، ويسمي طريقه طريق الغلاة، وأحب أن أنبه القارىء إلى أني إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الإسلامية، ولا أكثر ولا أقل والمؤرخ غير مسؤول.[2]

ابن القيم :

هومن تلامذة ابن تيمية ولد سنة 571هـ، لقي في حياته ضروبا من الشدة بسبب آرائه الحرة، فقد حبس مدة لإنكاره أن تشد الرحال إلى قبره الخليل، وقد حبس مع ابن

[1] زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، دار كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2012، ص 313،314.

[2] المرجع السابق، ص 314،315.

تيمية في المدة الأخيرة، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أســـتاذه، وله عدة تصـــانيف منها "مدارج السـالكين " و"شـرح الكتاب العزيز " " ونقد العقول "و" المحك المميز بين المردود والمقبول " و"أعلم الموقعين "....الخ .

وابن القيم من الد خصـــوم الغزالي، وقد نقلنا جملة من أرائه حتى تكلمنا عن أغلاط الإحياء، فلا نعود إليها أبدا.

وأكرر ما قلته من أنني أوجز كل الإيجاز في هذا الباب، فهؤلاء الذين أترجمهم آراء هي غاية في الخطورة، من حيث ما فيها من الدقة، ومن الجرأة، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون في الاحتياط، لأن العالم الإسـلامي كان يضـطهد الفلاسـفة ذاك، ولو سـمح لنا الدهر بوضـــع كتاب الفلســفة الإســلامية لاســتطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفذاذ آصـــار الخمول.[1]

[1] الدكتور زكي مبارك، الأخلاق عند الغزالي، الطبعة الرحمانية، مصر، 1924، ص 371،372.

الخاتمة

الخاتمة:

بعد هذا التناول التحليلي المتدرج لأبعاد البناء الروحي في فكر الغزالي، وما تبين من عمق رؤيته وتكامل منهجه في تهذيب النفس وتزكيتها، نصـــل الآن إلى لحظة تأمل ختامية نســـتعرض فيها أبرز ما خلصـــت إليه الدراســـة من نتائج، ونحدد من خلالها إسـهامات الغزالي في تشـكيل التصـور الإسـلامي للتربية الروحية، إضـافة إلى ما تفتحه هذه الرؤية من آفاق للبحث في الفكر الصوفي والفلسفي الإسلامي.

– لقد ســـعى الغزالي من خلال مشـــروعه إلى ترميم العلاقة بين الإنســـان وذاته، وبين الإنسـان وربه، وفي زمن كثرت فيه الشـكوك وتداخلت فيه الأصـوات الفكرية، فجعل من المعرفة والتزكية طريقين متلازمين نحو اليقين والسكينة .

– قد أظهرت الدراســـة أن الغزالي لم يتوقف عند التنظير الفلســـفي، بل انخرط في رحلة وجودية شاقة قادته إلى التجربة الصوفية، التي مثلت عنده أرقي درجات الوعي واليقين.

– كمـا بين تحليـل فكره أن البنـاء الروحي لا يتحقق إلا بفهم عميق لطبيعـة النفس ومجاهدتها، وتطهيرها من العوائق، في ضـــوء تصـــور معرفي كامل يجمع بين العقل والإلهام والوحي.

_ إن تـأكيـد الغزالي على مفـاهيم مثـل توبـة، المراقبـة، المجـاهدة، يعبر عن فهم دقيق وعميق لطبيعة النفس البشـرية وتقلباتها، ويدل على حرصـــه على توجيه الإنســـان إلى الســـير في طريق الســـعادة الأبدية، لا من خلال الطقوس المجددة بل من خلال وعي حقيقي بحضور الله في كل لحظة ومن هنا كانت كتبه مثل إحياء علوم الدين والمنقذ من الضـلال وميزان العمل محطات مركزية في مسيرة الفكر الإسـلامي الروحي، وقد ألهمت أجيالا من العلماء .

_ إن البناء الروحي عند الغزالي لم يكن مجرد تنظيم صـوفي منعزل عن الواقع، بل كان مشـروعا متكاملا يسـعى إلى تهذيب النفس وتطهير القلب، وتأسـيس علاقة عميقة بين الإنسـان وربه في انسـجام تام مع الشـريعة الإسـلامية لقد أدرك الغزالي أن النهضـة الحقيقية تبدأ من داخل الإنسان، من إصـلاح باطنه وترسيخ القيم العليا في سلوكه، قبل أن تمتد إلى إصـلاح المجتمع ومؤسـساته، لذلك إن مشـروعه الروحي اتسم بالجمع بين العلم والعمل، بين التصـوف السـني المنضـبط والعقلانية المتوازنة، وبين الفقه الظاهر والتزكية الباطنة.

_ إن المشـروع الروحي للغزالي لا يحتفظ براهنيته إلى اليوم، في ظل الانهيارات الروحية والفراغ الوجودي الذي يعاني منه الإنسـان المعاصـر، مما يجعل من فكره مصـدر إلهام حقيقي لمن يسـعى إلى تحقيق التوازن بين الظاهر والباطن، بين الجسـد والروح، بين العقل والقلب.

_ عليه فإن الغزالي لا يعد مجرد فيلسوف أو صوفي، بل هو مصلح روحي وفكري ترك بصمة خالدة في التراث الإسلامي تلهم الباحثين في كل زمان.

في ختام هذه المذكرة، التي تناولت موضـوع البناء الروحي عند الإمام الغزالي، يمكن القول إن هذا المشـروع يمثل نموذجا متكاملا في الفكر الإسـلامي، يجمع بين العمق الفلسفي والصدق الروحي، والتجربة الوجودية.

_إن الغزالي تجاوز النزعة العقلانية الخالصـة كما تجاوز المواقف الصـوفية المنفصـلة عن الواقع مقترحا تصـورا متوازنا للبناء الروحي يتأسـس على معرفة النفس ومجاهدة الأهواء، وربط السلوك الفردي بالغايات الأخلاقية والميتافيزيقية العليا.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المراجع:

1. القران الكريم (رواية ورش):

المصادر:

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. مصر: مصر للطباعة، ج2، 1998.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. ط1 ..

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. الاقتصاد في الاعتقاد. تحقيق: إنصاف رمضان. دمشق – بيروت: دار قتيبة، ط1، 1423هـ / 2003م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. القسطاس المستقيم. تحقيق: فيكتور شلحت. لبنان: دار المشرق، ط2، 1983.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المنقذ من الضلال. دمشق: مطبعة الصباح، 1990.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى. تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي. ط1، 1407هـ / 1987م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. ميزان العمل.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. معارج القدس في مدارج معرفة النفس. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط2، 1975.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. مشكاة الأنوار في توحيد الجبار. تحقيق: سميح دغيم. بيروت: دار الفكر اللبناني، ط1، 1994.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. تهافت الفلاسفة.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. الرسالة اللدنية. شركة الطباعة الفنية، د.ط، د.ت.

العوتبي، سـلمة بن مسـلم (أبو منذر). الإبانة في اللغة العربية. تحقيق: عبد الكريم خليفة وآخرون. مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة (عمان)، ط1، ج3.

البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ج1، رقم 7.

البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ج1، رقم 73.

المراجع:

العقاد، عباس محمود. فلسفة الغزالي. القاهرة، د.ط ..

ابن عبد البر، يوسـف بن عبد الله. جامع بيان العلم وفضـله. ج2. بيروت: دار الفكر.

بدر، عادل محمود. التجربة النورانية عند الإمام الغزالي من الأنا المنطقية إلى المنطقية المتعالية. دار الحوار، ط1، 2006.

الجوزو، محمد علي. مفهوم العقل والقلب في القرآن والسـنة. بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1983.

الرشـاد، عبد الله زاهي. الفكر التربوي المعاصـر. عمان: دار وائل للنشـر، ط1، 2004.

الشافعي، ناصر عبد الرحمن. الالتزام الإسلامي في الشعر. الرياض: دار الأصالة، ط1، 2003.

الطاهر، محمد جاسـم. مدخل إلى علم النفس العام. عمان: دار الثقافة، ط2، 2004.

العقاد، عباس محمود. فلسفة الغزالي. القاهرة، 2013.

فرويد، سيغموند. إبليس في التحليل النفسي. بيروت: الطليعة، ط2، 1986 ..

فيكتور، باسل سعيد. منهج البحث عن المعرفة. بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ط، د.ت.

مرسي، محمد منير. التربية الإسلامية وأصولها.

نشاوي، نسيب. مدخل إلى دراسة المذاهب الأدبية في الشعر العربي المعاصر.

نيلو، جورج ف. مقدمة في فلسفة التربية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط.

نزار، عز الدين إسماعيل. الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ط5، 1995.

نزار، عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط.

النجار، عبد المجيد. فقه التدين: فقها وتنزيلاً. قطر: مركز البحوث والمعلومات، د.ط.

القواميس والمعاجم:

ابن كثير، تفسير القرآن الكريم. بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت.

ابن فارس، أحمد بن زكريا. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: محمد هارون السلام. دار الفكر، ج2.

ابن فارس، أحمد بن زكريا. معجم مقاييس اللغة ، ج5.

ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. مادة "النفس"، ج1.

ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. تحقيق: عامر أحمد حيدر. بيروت: دار الكتب العلمية، مجلد 12، ط1، 2003.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن. بيروت: دار المعرفة.

الجرجاني، الشريف علي بن محمد. التعريفات. تحقيق: عبد الرحمن عميره. بيروت: عالم الكتب.

الجرجاني، الشـــريف علي بن محمد. التعريفات، مصـــر: مطبعة دار الريان للتراث، 1938.

الرازي، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمود خاطر. بيروت: مكتبة لبنان ناشـــرون، 1995.

الزبيدي، محمد مرتضـــى الحســـيني. تاج العروس من جواهر القاموس. مادة "النفس". بيروت: دار مكتبة الحياة، ط4.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. تحقيق: محمد خاطر نعيم العرقوسي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ب.ت.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. القاهرة: مطبعة دار السعادة، 1913.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. القاهرة: مطبعة دار السعادة، 1913.

مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، د.ط، 2003.

مذكور، إبراهيم. المعجم الفلسفي. القاهرة، د.ط، 1983.

الزمخشـري، أبو القاسـم محمود بن عمر. أسـاس البلاغة. تحقيق: محمد باسـل عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، ج2، 1998.

مقالات المجلات:

الحاجي، مباركة. "جدلية الأخلاق وفاعلية التدين الإيجابي في فكر محمد الغزالي"، مجلد 8، عدد 1، مارس (السنة غير مذكورة).

محمد، غازي. "فلســـفة العقل عند أبو حامد الغزالي". مجلة القاعدة، مجلد 4، عدد 1، جوان (يونيو) 2012.

جازولي، نادية نهاد. "الصحة النفسية عند أبو حامد الغزالي: دراسة إبستمولوجية". مجلة البحوث التربوية والتعليمية. جامعة الجزائر 2، المجلد 11، العدد 2، 2022.

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان

إهداء

مقدمة.....أ

مدخل مفاهيمي

مدخل مفاهيمي:.....9

1/ تعريف النفس:.....9

2/تعريف الروح:.....10

3/تعريف العقل:.....13

4/تعريف العلم:.....14

5/ تعريف التصوف.....16

6/ تعريف الصحة النفسية: 17

7/تعريف التدين:.....18

8/تعريف الالتزام.....19

الفصل الأول: البناء الروحي السليم عند الغزالي

المبحث الأول: نظرية المعرفة عند الغزالي.....23

منهج المعرفة عند الغزالي:.....26

مصادر المعرفة عند الغزالي.....28

المبحث الثاني: الأسس النظرية للبناء الروحي السليم عند الغزالي.....43

1/محاسبة النفس: 43

2/مجاهدة النفس: 44

3 /الصبر :.....46

4/التوبة:.....47
5/العلم والعمل:.....48
6/الذكر والعبادة.....50
7/ الصحبة الصالحة:.....51
المبحث الثالث: الوسائل العلمية للبناء الروحي السليم عند الغزالي 55
1/التوحيد: 55
2/ الأخلاق: 57
3/الزهد:.....59
4/ الصلاة:.....63
5/الشكر.....64
6/الأنس بالله تعالى 64

الفصل الثاني: تأثيرات فكرة البناء الروحي السليم على المعرفة عند الغزالي

المبحث الأول: شرح النفس والروح الإنساني 67
المبحث الثاني: غلبة النفس وعداوة الشيطان.....79
الرياضة والشهوة النفسانية:.....80
المبحث الثالث: كون النفس جوهرا.....82

الفصل الثالث: الغزالي والتصوف

المبحث الأول: الغزالي والتصوف 88
المبحث الثاني: تصوف الغزالي وآثره على فلسفته.....97
مقومات التصوف عند الغزالي :.....98
المبحث الثالث: التجربة الصوفية وعلاقتها بالفلسفة عند الغزالي 102
خصائص تصوف الغزالي 105
ركائز التصوف عند الغزالي 106

الفلسفة والتصوف في فكر الغزالي.....110
أثر تصوف الغزالي في الفكر الإنساني:.....112
نقد الغزالي للتصوف :.....115
الغزالي في مرآة الغير (النقد) :.....117
الخاتمة.....121
قائمة المصادر والمراجع.....123
فهرس الموضوعات.....129
الملخص.....132

الملخص:

تتناول هذه المذكرة موضـــوع البناء الروحي عند الإمام الغزالي أبو حامد من خلال دراســة تحليلية فلســفية تهدف إلى الكشــف عن مكونات المشــروع الروحي الذي قدمه الغزالي، بوصفه أحد أبرز أعلام الفكر الإسلامي الوسيط.

لخصــت الدراســة إلى أن البناء الروحي عند الغزالي يقوم على توازن دقيق بين العقل والقلب، بين المعرفة والمجاهدة، ويقدم نموذجا متكاملا لتربية النفس وبلوغ الســـعادة الحقيقية، مما يمنح مشـــروعه بعد بعدا راهنا في زمن الاضـــطراب الروحي والفراغ الوجودي، يعتمد الغزالي في مشروعه الروحي على الجمع بين العلم والعمل، ويركز على تهذيب النفس من خلال مراحل التخلية من الصـــفات الذميمة، والتحلية بالفضـــائل مع أهمية المجاهدة المســتمرة والمراقبة الذاتية، كما يؤكد على أدوار العلم والعبادة والصــحبة الصالحة، والتأمل في تحقيق التزكية.

تهدف هذه العملية الروحية إلى تكوين فرد مؤمن متزن الأخلاق، قادرا على التأثير في مجتمعه، ما يجعل البناء الروحي في فكر الغزالي مشـــروعا للإصـــلاح الفردي والاجتماعي في آن واحد.

الكلمات المفتاحية: البناء الروحي، النفس، المعرفة، التصوف.

Abstract:

This thesis addresses the topic of *spiritual development* in the thought of Imam Abu Hamid Al-Ghazali through an analytical philosophical study that aims to uncover the components of his spiritual project, as one of the most prominent figures in classical Islamic thought.

The study concludes that Al-Ghazali's spiritual framework is based on a delicate balance between intellect and heart, between knowledge and spiritual striving (mujāhada). It presents an integrated model for self-discipline and the attainment of true happiness, giving his project contemporary relevance in an age of spiritual confusion and existential emptiness.

Al-Ghazali's spiritual vision emphasizes the integration of knowledge and action, focusing on the purification of the soul through stages that involve the removal of blameworthy traits and the acquisition of virtues, along with continuous striving and self-monitoring. He also highlights the importance of knowledge, worship, righteous companionship, and reflection in achieving inner purification (tazkiyah).

This spiritual process aims to shape a morally balanced and faithful individual capable of positively influencing society, making Al-Ghazali's spiritual development project one of both personal and social reform.

Keywords: Spiritual development, soul, knowledge, Sufism.